الشريف الرضي

آية الله العظمى
الشيخ
محمد رضا كاشف الغطاء
قدس سره
(١٣١٠هـ - ١٣٦٦هـ)

١٤٢٠هـ
الذخائر
١٩٩٩م

الشريف الرضي

آية الله العظمى
الشيخ
محمد رضا كاشف الغطاء
قدس سره
(١٣١٠هـ - ١٣٦٦هـ)

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه محمد بن عبد الله وعلى آله ومن والاه.

وبعد:

هذه نبذة موجزة من حياة العلامة الفقيه مؤلف هذا الكتاب الموسوم بـ" ترجمة الشريف الرضي".

نسبه وولادته

هو العلامة الكبير والفقيه المحقق والكاتب النحرير الجامع لفضيلتي النظم والنثر أبو علي الشيخ محمد رضا نجل الحجة الفقيه الهادي بن الشيخ عباس بن الشيخ علي بن الشيخ الأكبر الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء (قدس أسرارهم).

ولد في النجف الأشرف ليلة الأحد التاسع من شهر شعبان سنة (١٣١٠ هجرية) وترعرع في أكناف بيتهم العامر الذي كان يعج بأعلام الفضل، وتعبق أشذاؤه بنفحات التقوى.

أساتذته

كان أول من أخذ عنه من أساتذته أباه الشيخ هادي حيث أخذ المقدمات، ثم أختلف إلى حلقات المشاهير من أعلام عصره فقرأ

"**الكفاية**" على السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني و"**نجاد العباد**" على شيخ الشريعة وعلى الشيخ علي القوجاني، كما حضر في الأصول على الفقيه المجدد الشيخ النائيني وكتب تقريراته وعلى الشيخ اغا ضياء الدين العراقي وكتب تقريراته، ودأب على هذه الحال من مواصلة الحضور إلى مجالس أبحاث أولئك العلام حتى بلغ درجة الاجتهاد. وكان مع ما بلغ إليه من المقام الرفيع أديبا بارعا لا يشق له غبار في عالمي المنثور والمنظوم، كما أن من فحول المحققين في القضايا التاريخية والنوابغ المحلقة في النوادي الأدبية التي كان تبارى فيها شيوخ العلم والأدب في ذلك الوقت، وتشهد لما قلناه آثاره المتنوعة وكتبه المصنفة في هذه الفنون، وقد كان طيب الله ثراه حجة في اللغة والنحو والمنطق وسائر علوم الآلة يرجعوا إليه فيما أختلف فيه منها.

مجلس درسه وتلامذته

كان رحمه الله شديد الحرص على إفادة أهل العلم وتنمية ملكات الاستنباط فيهم، ولم يكن ليفرط في الوقت بل كان يسير فيه على منهج دقيق ومراحل منتظم، وكان لتدريسه مجلسان عامران أولهما عند الصباح والآخر بعد العشاءين كما أشار هو إلى ذلك في دفتر يومياته المخطوط والمحفوظ في مكتبة كاشف الغطاء، وكما شهد بذلك معاصروه من أهل الفضل. قال صاحب كتاب "**ماضي النجف وحاضرها**" (٣ / ١٩١) «تخرج الكثير من الأفاضل من مدرسته وكانت حلقات درسه تحتوي على كثير من مهرة الفن، وكانت تلاميذه في علم النحو والمنطق والمعاني والبيان والأصول والفقه والهندسة لا يفضلون

أحداً عليه، وله آراء مبتكرة وآراء مستحدثه ضمنها في العلوم المذكورة وكان محل تدريسه وبحثه هو مقبرة جده العباس)).

وقال الأستاذ الخاقاني في "**شعراء الغري**" (٨ / ٤١٩): ((أما علمه فقد ظهر في آثاره ظهوراً قوياً وفي حلقته التي أختلف عليها كثير من فضلاء العصر فكان يمتاز فيها بحسن العرض وقوة الأداء)). ومن تلامذته أبنه الأكبر الفقيه الحجة الشيخ علي (قدس سره).

آثاره العلمية

ترك شيخنا المترجم (رحمه الله) آثار مهمة ومصنفات جليلة في جملة من العلوم التي مهر فيها، وقد طبع بعضها وما زال القسم الآخر ينتظر الطبع وإليك أسماءها:

١ـ "**حاشية على كفاية الأصول**". (مخطوطة).

٢ـ رسالة في الخط العربي. (مخطوطة).

٣ـ خمس مقالات في الهندسة تعرض فيها لأغلب الأشكال التي ذكرها أقليدس في كتابه وقد برهن عليها بوجه آخر لم يذكرها اقليدس ولا العلامة الطوسي. (مخطوطة).

٤ـ رسالة في اللغة بعنوان "**الفرق بين الضاد والظاء**". (مخطوطة).

٥ـ الفصول الرائقة في الأمثال العامية الدارجة في العراق. (مخطوطة).

٦ـ كتاب في الرد على النصارى حاكم فيه بين الإسلام والنصرانية الموسوم "**الحق المبين فيمن يجب اتباعه من المرسلين**" (مطبوع).

٧ـ كتاب "**الرق في الإسلام**"، عالج فيه المواضيع المشكلة في الرق. (مخطوطة).

٨ـ ديوان شعره. (مخطوطة).

٩ـ ترجمة الشريف الرضي. وهو مطبوع/النجف الأشرف/ الناشر شيخ العراقيين/دار النشر والتأليف. وقد ذكره صاحب الذريعة في موضعين الأول في المجلد السابع الصفحة(١١٩) بعنوان حياة الشريف الرضي والثاني في المجلد الرابع عشر الصفحة(١٨٨) بعنوان الشريف الرضي. وهما كتاب واحد.

١٠ـ تحقيق وتعليق على الجزء الخامس لكتاب حقائق التأويل للشريف الرضي/ الناشر جمعية منتدى النشر/دار المهاجر/بيروت.

١١ـ كتاب الغيب والشهادة. قال صاحب الذريعة (١٦/ ٨٤) ((فيه مباحث الروح وعالم البرزخ والمعاد وأحوال القبر والبعث وغيرها)) طبع في النجف الأشرف في ١٣٤٦ هجرية.

وفاته

لبى نداء ربه بعد إصابته بمرض السكر وهو في مصح بخنس بلبنان سنة ١٣٦٦ هجرية، ونقل جثمانه الطاهر إلى النجف الشرف حيث دفن في مقبرة آل كاشف الغطاء بجوار جده وأبيه (طيب الله ثراهما).

عقبه

أعقب خمسة أولاد وهم:

١ـ الفقيه آية الله العظمى الشيخ علي المتوفي ١٩رجب ١٤١١ هـ. ٢ـ الدكتور محمد. ٣ـ الأستاذ أحسن المتوفي في ١٤١٠ هـ. ٤ـ الحقوقي الأستاذ جعفر. ٥ـ حسن المتوفي (١٣٤٨ هـ) وعمره ثمان سنين.

مصادر ترجمته

١ـ طبقات أعلام الشيعة/١/٧٧٥.
٢ـ ماضي النجف وحاضرها/٣/١٩١.
٣ـ شعراء الغري/٨/٤١٨.
٤ـ الغدير/٤/١٨٢.
٥ـ هكذا عرفتهم/١/١٤٣.
٦ـ الذريعة في مواضع متفرقة.
٧ـ كتب ولده سماحة آية الله الشيخ علي (قدس سره) ترجمة حافلة لوالده الرضا جاءت مع ما قيل في تأبينه من نظم ونثر في ستة مجلدات.

بسم الله الرحمن الرحيم

للهاشميين طموح نحو العرش الإسلامي وهم وراثه الشرعيون وهذه النزعة السياسية تتحلب من أصلابهم وتنحدر في دمائهم وتداث في غرائزهم، ولها كمون وبروز يلاحظ بمظاهر مختلفة ويتحمل أعباءها الدم تارة، والقلم أخرى.

وإذا استعرضنا التأريخ نجد أن أكثر الوقائع التي يقوم بها الهاشميون في وجه الحكم لا تنتهي إلاّ بالفشل، وأهم أسباب هذا الفشل لمن تدبر هو أن ذلك النمط من تلك الوقائع كان ينشأ في ظروف خاصة وأحوال استثنائية وفترات من الحكم مؤقتة، ما تفتأ أن يستعاد لها النشاط ويتظافر على إحباطها العرش والزمن والقوة الدموية ومستقر المرجعية الدينية ما يتماشى منه مع السلطة والآخر الذي نهج خط الانعزال السياسي وإليك كلمة في هذا الشأن.

إن مسألة الخلافة هي القضية الوحيدة التي امتهنت بها الوحدة الإسلامية وارهقتها في الصدر الأول وفي القرون المتوسطة، وعصفت بالتضامن الإسلامي وشقت عصاه، وقد حسبت لها حسابها الأئمة الطاهرون من ولد علي(عليه السلام) وتمسكوا حولها بمبدأ السر الألهي الذي استودعوه فغسلوا أيديهم في سبيلها من دم الخلاف وردوا في شأنها سيوف الفتن الى أغمادها. فتنازل الحسن(عليه السلام) عن السلطة الزمنية لمعاوية، وجرى على ذلك من بعده من الأئمة الأثني عشر(عليهم السلام)

حرصاً منهم على سلامة كيان الدولة الإسلامية. وكان أول تصريح ملوكي لفصل السلطة الزمنية عن السلطة الدينية في التأريخ الإسلامي هو ذلك الخطاب الذي أفصح به معاوية في نقض الشروط التي اشترطها الحسن(عليه السلام) عليه ولم يكن قتال الحسين(عليه السلام) في كربلاء من قبيل المطالبة بالعرش، إنما أراد به الدفاع والخلاص من عادية تلك السلطة وأن يظهر للملأ بتركه للبيعة أن تلك السلطة ليست هي من نوع الخلافة الدينية المفترضة طاعتها من الله. وهكذا اتبع الأئمة خطة الانعزال السياسي وانصرفوا إلى تأدية الرسالة التي كلفهم الله بها. ولكنهم في ذات الوقت يرون أن حقهم مهتضم إلاّ أن الأتباع والأعمام والمتحمسين من الأبناء لا يروقهم ذلك، فقد سمع الحسن(عليه السلام) من بعض المخلص من شيعته موحشة قذفتها من فيه فورة الدم وسورة الحماس والغضب.

ومن ذلك الحين رضخ المبدأ العلوي للقوة وانصاع لمقدراتها وتمسك به كل من مسه لهب الحكم واستمال إليه موقفه المهتضم، من الشعوب التي كانت مراتع البغي والعدوان وفتح لها أبواب التفكير في عقيدته ودفع بها إلى اعتناقها.

كانت الدولة الأموية تتحاشى العرب وتهاب الاعتداء عليهم في أقطارهم والعرب أنفسهم لا يرون لها ذلك الشأن الذي يمكنها التلاعب بمقدراتهم، وبلاد فارس دار مغنم ودهاقينها شاة حلوب وملك الري هو الذي ينهمر كالسيل بأمواله على خزائن الدولة. أضف

إلى ذلك أنها سهلة التناول وفي الجوار وبلاد الموالي رقاب المزاود، فكانت الولاة تتلاعب فيها ما شائت لهم شهواتهم وأمانيهم، فاضجرها الحيف والجور وتغلغل في قرار أعماق نفوسها المقت والبغض للدولة، وأصبحوا يرقبون الفرج في كل حين واستلزم ذلك طبعاً الميل إلى المعارضة والمشايعة لمن يرغب في هدم هيكل سلطانها.

والبيت الهاشمي هو ذلك البيت الذي ينتظر منه الفرج والعنصر المعارض، وقد أوجب ذلك أن تميل إليه دخائلهم وتنعطف له طباعهم، وقد زادهم عطفاً عليه الكوارث والنكبات التي كانت تنزلها الدولة به والمظلومية والامتهان من دواعي العطف والحنان.

ومن هذه الطريق سرت إليهم العقيدة الشيعية فكانوا شيعة بطبيعة الحال، غير أن الجمهور والعامة الدهماء منهم شيعة على الإجمال للبيت الهاشمي بجملته بحكم العاطفة والوجدان من دون تبصر وروية ولا تمسك بالعقيدة عن علم ودلالة ومن دون معرفة بمستقر الإمامة ومهبطها، نعم كان فيهم أعلام يعرفون مواضعه ومراجعه وهذا ما دفع بالخرسانيين لنصرة العباسيين على حساب أنهم فرع من تلك الدوحة الهاشمية وسلالة من تلك الأسرة صاحبة الحق والمضطهدة من قبل الدولة الأموية، فخرطهم في ولايته بسلك واحد وظن أن القائم بالأمر هو معقد الزعامة والإمامة ودعوته دعوتهم وولاؤه ولاؤهم، وجهل كل الجهل ما كان بين العلويين والعباسيين من اختلاف في الرأي والمبدأ. ولا تنسى أن بعض المتبصرين منهم كان على اتصال مع إمامه

صلة دينية مجردة ليس وراءها سوى أخذ معالم الدين وكان على علم من مخالفة الأئمة العلويين لأبناء عمهم العباسيين في المبدأ والخطة والغاية. وأما ما سطره بعض المؤرخين من أن الدعوة العباسية كانت تعتصم وتستمد من الصلات السرية بالأئمة العلويين، فتلك فرية تاريخية واسطورة خيالية والسيرة العباسية معهم تدلنا على أن هناك عهداً عباسياً ملوكياً يتوارثه الأبناء عن الآباء فما زال العباسيون يزجونهم في سجونهم ويأخذون عليهم السبل ويقلقونهم بالمنافي. ولا يجهل أحد ما فعله المنصور بجعفر بن محمد(عليه السلام) ولا ما لقيه ابنه موسى بن جعفر(عليه السلام) ولا ما انتهى إليه أمر المأمون مع الرضا(عليه السلام) لقيام العباسيين عليه وإجماعهم على أن ما صدر منه غلطة سياسية كان يجب تلافيها.

إلاّ أن الأئمة العلويين دأبوا على اتباع الخطة المثلى والعزيمة الآلهية التي صمموا عليها، فقد أعرضوا عن التاج والعرش الإسلامي، ولقد كان انعزالهم السياسي وموقفهم الديني مباركاً على العقيدة الشيعية ومن أقوى أسباب حياتها وبقائها ونموها وزكاتها واستفحالها وقد تخطت القرون الطويلة ولم تصدعها الكوارث والحوادث، ولم يهدها بطش الفراعنة والجبارين ولم تزعزعها عواصف السياسة. وقد تهيأ لهم(عليهم السلام) وبالأخص منهم علي بن الحسين(عليه السلام) من العطف العام والأنصار والأعوان والأموال الطائلة ونجدة الأبطال ومناصرة الرجال ما لم يتهيأ لغيرهم. وعلي بن الحسين وهو على حداثة سنه ومبدأ أمره

لم يغره ذلك ولا صرفته التوسلات الملحة عن نهجه القويم فمضى على بصيرة من أمره بعزم كالحديد في تقوى وزهادة وإرشاد وعبادة وانقطاع وانعزال،وهذا هو الذي قصر حركات العلويين على الحسرات والعبرات وشل التوسلات الثورية الدموية التي كان يدبرها بالخفاء بعض أبنائهم المتحمسين، وأصبحت تلك النزعة السياسية والدخيلة العلوية الكامنة في نفوس أبنائه تتفلت وتبدو تارة بمظهر جدلي علمي على ألسنة علمائهم، وأخرى بمظهر شعري خيالي في شعر فصحائهم وأدبائهم، وتلتهب بها ثالثة قرائح الكتاب فتتفجر أقلامهم كأفواه البراكين وتصقل عبقريتهم الأدلة والحجج فتلبسها أبراداً موشاة من بليغ الأساليب البيانية، وإذا استقرأنا حياة الشريف الرضي وتتبعنا خطواته وسبرنا شعره ومؤلفاته نجد نفسه متشبعة بذلك الشعور. ولقد ملئ من ذلك الإحساس وهو صورة حقيقية لنفسيته، وبه نقيس وجدانياته ومنه نعرف نزعاته. وسيرى القارئ فيما يأتي ذلك فان طبعه مطبوع على ذلك الغرار وذهنيته علوية على ما وصفناه.

الشريف الرضي[١]

ولادته ونشأته ودراسته

ولد ببغداد مدينة العلم والأدب، وعاصمة العراق، سنة ٣٥٩هـ ونشأ في حجر والده الطاهر. ودرس العلم في طفولته فبرع في الفقه وفاق أقرانه، في العلم والأدب، وتلمذ على يد أساتذة من أهل العلم والفضل كما ينبؤنا كتاب "المجازات النبوية"[٢] وقال الشعر، وعمره لا يزيد على العشر حتى فاق شعراء عصره على صغر سنه. فلما بلغ سنّهُ (٢٩) خلف أباه في النقابة على الطالبين، ثم ضمت إليه مع النقابة سائر الأعمال التي كان يليها أبوه. وبقي فيها حيناً من الدهر، حتى تغير عليه القادر بالله، لاتهامه بالميل إلى الفاطميين فصرفه عنها، فعاش عيش القانع الشريف إلى آخر أيامه.

---

(١) أبو الحسن محمد: ابن أبي أحمد الطاهر، ذي المنقبتين الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم المجاب بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام.

(٢) روى ابن خلكان أن الشريف أحضر الى السيرافي وهو طفل لم يبلغ عمره عشر سنين فلقنه النحو، وعلي بن نباته، وقاضي القضاة أبي الحسن بن عبد الجبار بن أحمد الشافعي المعتزلي وأبي بكر محمد بن موسى الخوارزمي وأبي عبد الله محمد بن عمران المرزباني وأبي الحسن علي بن عيسى الربعي وأبي حفص عمر بن إبراهيم الكناني وأبي الحسن علي بن عيسى الرماني وعثمان (ابن جني) وأبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان (المفيد) المتوفى سنة ٤١٣هـ ببغداد.

صفاته وأخلاقه

كان أبيّ النفس، عالي الهمة، سمت به عزيمته إلى معالي الأمور، فلم يجد من الأيام معيناً، وكان عفيفاً لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة حتى بلغ من تشدده في العفة أن رد ما كان جارياً على أبيه من صلات الملوك والأمراء وأجهد بنو بويه أن يحملوه على قبول صلاتهم فما استطاعوا.

آثاره العلمية والأدبية

للشريف مؤلفات عدة ومصنفات جمة[١] تدل على علمه وفضله وأدبه الغزير، وتضلعه في النحو واللغة، وأصول الدين، والفلسفة وغيرها من مختلف العلوم منها:

١ـ **"تلخيص البيان عن مجازات القرآن"**.

٢ـ **"المجازات النبوية"**.

٣ـ **"معاني القرآن"**.

٤ـ **"نهج البلاغة"**[٢].

٥ـ **"حقائق التأويل في متشابه التنزيل"**.

٦ـ **"خصائص الأئمة عليهم السلام"**.

٧ـ كتاب سيرة والده الطاهر[٣].

---

(١) سيأتي بيان شرحها.

(٢) هذا الكتاب الفائز بعظيم الشهرة والاهتمام مشروح بشروح كثيرة وقد وقفنا حتى اليوم على ستة وستين شرحاً من هاتيك الشروح ما عدى الشروح الخاصة بخطب مخصوصة وهي لا تقل عن تسعين شرحاً. ويروي بعض علماء التأريخ والأدب أن شروح "نهج البلاغة" قد بلغت نحو المائتين.

(٣) ألفه قبل وفاته بـ(٢١) سنة.

٨ـ كتاب رسائله: (ثلاثة مجلدات)[١].

٩ـ كتاب ما دار بينه وبين أبي إسحاق الصابي من الرسائل.

١٠ـ كتاب "الزيادات" في شعر أبي تمام.

١١ـ "مختار شعر أبي إسحاق الصابي".

١٢ـ "أخبار قضاة بغداد".

١٣ـ "تعليق خلاف الفقهاء".

١٤ـ تعليقه على إيضاح أبي علي الفارسي[٢].

١٥ـ كتاب الجيد من شعر ابن الحجاج وقد أسماه "الحسن من شعر الحسين"

١٦ـ (ديوان شعره).

شعره

نهج الرضي في شعره منهج الأقدمين من الشعراء في جزالة اللفظ، وفخامة المعنى تنزه فيه عن عبث الوليد ومجونه، وكان على مكانته في الشعر، راسخ القدم في الكتابة، بعيد الشأو في الترسل.

مفرسه

انحدر من أصلاب الشرف العلوي، ودرت عليه أخلاف المجد الهاشمي، وبزغ في ظلال أسرة الزعامة ودرج من أحضان الإمامة فكان لهذا أثر بليغ في ترفعه وشممه ومطاولته ومحاولاته وعواطفه وميوله وتحدياته، وأوجب ذلك أن يرى لنفسه كفاية العرش ومنازعة

---

(١) وقد نشرت مجلة العرفان شيئاً منها.

(٢) ذكرت هذه الكتب في "عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب"، وفي "رجال النجاشي" أيضاً.

التاج فيقول للعاهل العباسي:

مهلاً أمير المؤمنين فإننا ... عن دوحة العلياء لا نتفرق

إلا الخلافة ميزتك فإنني ... أنا عاطل منها وأنت مطوق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... إلى آخره.....

ولا ينكر عليه القادر بالله دعواه ولا يستظهر عليه بالتفوق بطيب المغرس وإصالة النجر وكرم المحتد، ولكنه يعتصم بالقوة ويرغمه على النزول لأحكامها فيرد عليه بقوله: (على رغم أنف الشريف).

وكانت شاعرية الشريف وقوة خياله[1] تطير به إلى القمم والشرفات وتذكي في نفسه الأريحية والخيلاء وتقرب من أخمصه موطأ الدست وترد بأفكاره ونزعاته إلى اتجاه معين، وتستعيد له ذكرى مجد السلف الذي طأطأ له أكاسرة فارس وأفيال الروم ولم تستدرجه مصانعة العباسيين. فقد كان يحرق لهم الأرم وينبزهم باللقب الوضيع، فان الطائع كان يبالغ في إكرامه واكرام أبيه ولكن الشريف يرى أن ذلك حقه الصريح وان من الرعونة أن يبيعه ضميره بمغنم حسامه فيقول:

ألا فتى غرب الجسام الذي ترى ... وغارب هذا الأرعن المتسامي

كلانا له السبق المبرز للعلى ... وإن كان في نيل العلى أمامي

وما بيننا يوم الجزاء تفاوت ... سوى أنه خاض الطريق أمامي

استهل الشريف في حجور المجد، وأورق عوده من دوحة ضربت أعياصها في منابت الفخار واستفاد نوع الثقافة واستقام له اتجاهه النفسي في محيط من السراة والنقباء والعلماء والأمراء.

---

(١) أو خيالية.

رهطه وأشياخه

شعر الشريف ميادين حروب وغمرات آجال وشعور ملتهب وآلام وآمال ونفس جائشة تتلمظ للوثبة فمن أين تفجر هذا الشعور؟ وما الذي أجج هذا اللهيب؟ وما الشريف الرضي من أوله إلى آخره إلاّ إعصار فيه نار .. !! لا ريب إن المنافي والاغلال التي أرهق بها رهطه وآله الأنجاد الأولون، والأسناد التالون في سبيل منازعاتهم ومحاولاتهم، والسجون الكواظم والدماء السواجم التي نكلوا بها، هي التي أثارت فيه ذلك الشعور وتعاليه من تلك المعالي وتماجده من مجد أولئك الاماجد، وهنا نقص عليك نتفاً من أحاديثهم وعلى ضوئها تعرف ناحية من نواحي حياة الشريف. أما أبوه الحسين، فكان قوي المنة شديد العصبية، يتلاعب بالدولة ويتجرأ على مقدراتها، وكان نقيب النقباء اسندت إليه أمارة الحج والنظر في المظالم ولقب بذي المنقبتين ولم يلقب به أحد من الطالبيين، وله غلو في التمجيد بآبائه. وديوان الشريف مملوء بمدائحه وتهانيه وشكر أياديه، وقد ورث منه هذه النزعة. ولما قبض عليه المطهر بن عبد الله، وزير عضد الدولة، وهو وابن عمر العلوي وابن معروف قاضي القضاة وحمله إلى فارس وسجنه في القلعة قال له: (كم تدل علينا بالعظام النخرة) وفي ذلك يقول الشريف:

وطاغ يُعيِّر البقي عَرب لسانه ... وليس لهُ من جانب الدين ذائدُ

تعير ربَّ الخير بالي عظامه ... ألا نزهت تلك العظام البوائدُ

ولو كان بين الفاطميين رَفرفت ... عليه العوالي والظبى والسواعدُ

ومدائح الرضي لأبيه كلها تستقطب حول الإشادة بمفاخر الأسرة ومآثر البسالة والاستنكاف عن مصائد الاطماع والشموخ، بغرر الأيادي وإن الظهير الصادر من ديوان الخلافة في إسداء إمارة الحج له الذي نقرأه في رسائل الصابي ومراثي المهيار له في قصيدته التي مطلعها:

كذا تنقضي الأيامُ حال على حَالِ ... وتنقرضُ السادات بادٍ على تالي

ومنها يشير إلى (المرتضى والرضي):

فيا ليت لـمْ يُعدمْ وفودُك عادةً ... بشبليك من عطفٍ عليه وأسبال

والمعري بقوله:

لودي فلليت الحادثات كلاهما ... مال المسيف وعنبر المستاف

الطاهر الآباء والأبناء والألوا ... ب والألقاب والآلاف

لخير دليل على ذلك وإن مكانة ولديه (المرتضى والرضي) تحدد لنا كرامته الاجتماعية بما ذكرناه. وقد أثرت على الشريف قضية القلعة وسجن أبيه فيها وكانت تقلقه وتستثير منه الحفاظ وله حولها اندفاعات حماسية نقرؤها في شعره الذي نظمه عند الإفراج عن أبيه واستقباله وفي تهانيه عند عودته إلى بغداد ومكاتباته له وكان يتكظم غيظه في مكاتباته اتقاء من مكر عضد الدولة وكيده ثم تنطلق له حرية شاعريته شيئاً فشيئاً في الإفراج عنه ثم في استقباله وفي تهانيه ولقد كان يهاب عضد الدولة، حتى بعد أن إستخلدت جثته الهامدة في قبره فلا يفصح

بنبأ هلاك عضد الدولة لأبيه إلاّ على سبيل الرمز والإشارة فيقول له سنة ٣٧٧ هـ:

أبلغا عني الحسينَ إلاّ كـــا ... نَ ذا الطـــودِ بعدَ عهدكَ سالمـا
والشهابُ الذي اصطليت لظـــاه ... عكستْ ضـــوءهُ الخطوبُ فباخا

ومنها:

أعجلتها المنون عـــنا ولـكن ... خلفـت في ديارنـا أفراخـــا

وأبو الشريف من اسرة بهاليل مساعير سراة مصاليت ومقامه الكريم أهله للسفارة ما بين معز الدولة والأتراك، وما بين بهاء الدولة وصمصام الدولة، ولتوسط الصلح ما بين معز الدولة وابن حمدان، وإطفاء الفتن بين الجندين البغدادي والفارسي، والطائفتين الشيعة و السنة، وأمثال هذه الأمور لا يعهد بها إلاّ لذي كرامة سامية بين الجماهير، واحترام ذاتي واسع غير مستعار ويظهر لي إن الخلافة العباسية، كانت تحشى إقامته في عاصمتها، فكانت تكلفه بأمثال تلك السفارات وما يشبهها من وظائفها وقد قضى الشريف أربعة عقود من عمره مع أبيه، توفي أبوه سنة٤٠٠ هـ وتوفى الشريف، سنة ٤٠٦ هـ وهو ابن ٤٦ سنة كان يتلابس فيها بأعماله ويستنيبه في شؤونه أكثر من أخيه المرتضى، وسنذكر لك أسباب ذلك ونوضح لك أن الشريف، كان ينحو عدوة أبيه وخططه ومراميه السياسية وليس المرتضى من ذلك في شيء.

ولم يكن عم الشريف، أبو عبد الله احمد بن موسى بالخامل

الذكر الوضيع الشأن فان الذي يظهر لنا من قصيدة الشريف، التي رثاه بها عند وفاته سنة ٣٨١ هـ والتي مطلعها:

حُسامٌ خلا عند الزمان فصُمِمتْ مضاربُهُ حيناً وعادَ إلى الغمْدِ

ومن الشأن الذي توفى وهو خروجه إلى واسط لاستقبال بهاء الدولة، أنه من رجال الطالبيين الذين أسهموا بالفخار والكرامة، فلا يستقبل الملوك إلاّ من يعرفه الملوك ويقدرون موقفه ومن الجائز أن يكون ممثلاً لأخيه أبي أحمد الذي كف بصره في آخر أيامه، وكفاه مجداً أن يترك ولديه المرتضى والرضي، ويخصه بذلك، وأما حال الشريف الناصر فان نسبه ينتهي إلى عمر الأشرف ابن زين العابدين(عليه السلام) وفي سلسلة هذا النسب ورجاله من دوح الملوك، والنابغ في العلم والأدب والشاعر المجيد كأبي على الشاعر، الذي أشخصه الرشيد من الحجاز، وحبسه في بغداد، وأفلت من حبسه واختفى فيها، ومحمد بن القاسم الصوفي، الزاهد الفقيه إمام (الزيدية) الذي ظهر أيام المعتصم في طالقان، وقبض عليه أبن طاهر وأنفذه إلى بغداد، فسجن فيها ثم فر فاخذ وقتل صبراً، والشريف أحمد الصوفي الفاضل المصنف، وأبي عبد الله الحسين والحسن الشاعر المحدث، وأبي محمد الحسن أو الحسين الناصر للحق الكبير الاطروش إمام الزيدية، صاحب الديلم وصاحب المقالة، وإليه تنسب الناصرية من الزيدية، ضرب ألف سوط فصم، وأبي علي الأديب الذي كان يذهب مذهب الإمامية ويهجو الزيدية، ويعاتب أباه بقصائد، وأبي محمد الحسن الناصر الصغير النقيب ببغداد، والذي صح عندنا من نسب أم الشريف فاطمة، إنها بنت الناصر الصغير أبي محمد الحسن أو الحسين ابن أبي الحسن أحمد ابن

أبي محمد الحسين صاحب الديلم، ابن أبي الحسن العسكري ابن أبي محمد الحسن بن علي الأصغر المحدث ابن عمر الأشرف، والمتتبع يجد اضطراباً كثيراً في كتب التراجم والرجال في نسبها وعلى ما ذكرنا من نسبها فخال الشريف، هو المكنى بأبي القاسم ناصر الملقب بريقا، على ما ذكر في عمدة الطالب، وظني أن تهمة الشريف بعقيدة الزيدية، نشأت من سببين :

الأول: من جهة أخواله الذين أغلبهم زيديون، وفيهم أئمة للزيدية وأصحاب مقالات فيها.

والثاني: ما شحن به شعره من الحماس والمطالبة بالثأر والدعوة إلى الخروج على الخلفاء وأرباب العروش في عصره كما يفعله أئمة الزيدية وشعراؤهم ورجالهم في أساليب خطبهم وشعرهم.

وفي جده من أمه هذا يقول من قصيدة يهنئه فيها:

أرق المعالي التي أوفى أبوك بها ... فكم تناولتها قوم بغير أب

إلى أن يقول:

كُنْ كيف شئتَ فان المجد محتملٌ ... عنكَ المغافر في بثٍ وفي عقب

ومنها:

يابن الذين إذا عدوا فضائلهمْ ... عدى الندى ضربهم في هامة النشب

وقال جامع ديوانه، في ترجمة هذه القصيدة، وقال رحمه الله يمدح خاله أبا الحسين أحمد بن الحسين الناصر، وقال في ترجمة القصيدة، التي يرثي بها والدته، وقال يرثي والدته فاطمة بنت الناصر، وأبو

الحسين هذا ليس بخاله إلا على ضرب من المجاز، ويخاطبه في القصيدة التي يرثي بها والدته:

أبلوك أكرم من تلجّت بهم ... بهم ينابيع من النعماء

من ناصر للحق أو داع إلى ... سبل الهدى أو كاشف الغماء

نزلوا بعرعرة السنام من العلى ... وعلوا على الأثباج والأمطاء

ويتصل نسب الشريف من أبيه بالإمام موسى بن جعفر[1](عليه السلام) وهو في طبقة القائم المهدي(عجل الله فرجه) وفي آبائه والأعمام الذين يتصل في سلسلة نسبه بهم بالإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) الشرف كل الشرف والرتب الشامخة، ومن توثبوا على عروش الخلفاء وامتشقوا الحسام في وجه سلطانهم ولقد كان الطالبيون في تلك القرون والعهد القريب يتمثل لهم الحق الصريح في العرش الإسلامي ويشعرون بأنهم هم ورائه الشرعيون، وبدمائهم ربح المسلمون في صفقتهم وبسيوفهم تأسست الدولة الإسلامية، فما كانت تمر الفينة بعد الفينة، من الزمن إلا يقوم قائم منهم بالدعوة وما أسرع ما تلتف حوله الجماهير وتناصره بالأنفس والأنفس، ولهذا كانت النقابة من الضروريات في تشكيلات الدولة، ومن وظائفها المهمة كما سنذكره.

الشريف: بحاشيتي نسبه من جهة الأب والأم، يقبض على عضادتي الإمامة فهو ابن الإمامين علي بن الحسين وموسى بن جعفر عليهم السلام ومن الأعمام والحواشي يكرع بكؤوس الفخار ويتزمل مطارف الشرف والمعالي وقد أثر هذا النسب الوضاح في خياله وشعره

---

(١) أنظر ص١٠ هامش (١).

وتمشى في أدبه وأسبغ عليه حلة ضافية، فلا يستطيع أن يعمل قريحته في نظم قصائده مجردة عن تلك النعرة، وهو من هذه الجهة ظهرة علنة فاه لا يطيق الكتمان، وشعره أغلبه مطبوع بطابع ذلك الشعور الذي يساور قريحته ولا ينفك عنها ومصقول على غراره، وهذا ما نجده بين دفتي ديوان شعره فهو مملوء إلى حواشيه بالتماجد والافتخار الذي يتجاوز حد المبالغة إلى أقصى أمد في الغلو، ولكثرة مزاولة قريحته ذلك برع في هذا الفن من الشعر واحتكر فيه سرير الأمارة.

ولما كان الشريف ممن فتنه المجد وصرعه الطموح إليه حسب أنه مما يفتن به حتى الرشأ الشارد والحبيب النافر فغازله ليغريه بما افتتن به وعرض له بأسمى ما يشعر به من لغات الفتوة والمجد في قصيدته:

لوْ علمتْ أيّ فتًى ماجدٍ ذاتُ اللمى والشنب البارد

ومنها:

فالتقتا ثمّ ثنى طرفهُ تلفتُ الظبيِ إلى الصائدِ

وفي هذا البيت من رقيق المعنى ولطيف التشبيه ما لا يستنكفه الشريف من فروسية الصائد وروعة الحبيب وفزعه واعتصامه بالنفور وملاحظة المحاول ما تعدى الحد.

ومنها:

ما أنا للطيفِ إنْ لمْ يكنْ مِنْ ولدي ما كانَ من والدي

ثم تستدرجه ذكرى عليائه ويذهل عن موضعه ويطفح على لسانه ما أكنّه في قرارة نفسه من عزائمه وأمانيه فيقول:

ولا مشت بي الخيل إنْ لم أطأ سرير هذا الأغلب الماجد

ويقول:

ما عذرُ مَنْ ضَرَبَتْ به أعرافَه ... حتى بلغنَ إلى النبي محمدِ
إن لا يمدُّ إلى المكارم باعَهُ ... وينالُ منقطعَ العُلى والسؤدد

ويقول:

أخذنا عليهم بالنبي وفاطم ... طلاعَ المساعي من مُقام ومنجدي
وطئنا بسبطي أحمد ووصيِّهِ ... رقاب الورى من مشهمين ومنجدي
وحزنا عتيقاً وهو غاية فخركم ... بمولد بنت القاسم بن محمدِ

ويقول مشيراً إلى ما أرهقه من حق مهتضم:

ردوا تُراثَ محمدٍ ردوا ... ليس القضيبُ لكم ولا البُرد
هل عرفتْ فيكم كفاطمة ... أمْ هل لكم كمحمدٍ جدُّ
شرفوا بنا ولجدنا خلقوا ... وهم صنائعنا إذا عدوا[1]

ويقول:

قومي ثوى في بني معد والذرى ... من واضح فيهم ومن وضاح
ضربت بعرقي دوحة نبوية ... في منصب وارى الزناد صراح

ويقول وهي أحسن ترجمة لأبيه:

ورثنا رسولَ الله عَلْوَ مجدهُ ... ومعظم ما ضمّ الصفا والمعرف
يريدون أن نلقي إليهم أكفنا ... ومن دمنا أيديهم الدهر تنطف
وهذا أبي الأدنى الذي تعرفونه ... مقدم المجد أول ومخلف
مؤلف ما بين الملوك إذا هفوا ... واشفوا على حز الرقاب واشرفوا

---

(١) الناس صنائعنا ونحن صنائع الله.

له وقفات بالحجيج شهودهـــا إلى عقب الدنيا منى والمخيـف

ويقول:

أنا ابن الأولى أما دعوا يوم معرك أمدوا أنابيب القنا بالمعاصـم
إذا نزلوا بالمأحل استنبتوا الربى وكانوا نتاجاً للبطون الطقـم
وما منهم إلا امرؤ شب ناشـئا على نمطي بيضاء من آل هاشم
فتى لم توركه الاماء ولم تكـن أعاريبه مدخولة بالأعاجـم

ويقول وقد أغرق في الغلو والمبالغة بالادلال والأفتخار:

يظن المجتدي إنـا على الجود تواصينا
ملكنا مقطع الـرزق فقرنا واغنيـنا

وله من الفخر العصامي ما لا يقل عن فخره العظامي فمن ذلك قوله:

أحب خليلي الصافنين صـوارم وأطيب داري الخباء المطنـب
لثامي غبار الخيل في كل غارة وثوبي العوالي والحديد المدرب
أنا السيف إلا أنني في معاشر أرى كل سيف فيهم لا يجـرب

ويقول في القصيدة التي يمدح بها أباه:

مالي اخـوف بالردى فاخافـه هيهات لـي في الخلق بعد عجائب
إنا أكلة المغتاب إن لم أجنها شعواء يحضرها الطلب الغائب

وقوله أنا أكلة المغتاب من لطيف المجازات:

ومجاهل الفلوات أطيب منزل عندي ولوفي الـواعدين نجانـب

ومما يدلنا على أن فكرة التوثب والنهوض كانت تساوره منذ الصغر، وقوله وهو ابن عشر سنين:

المجد يطلم لن المجد من أربى ولـــو تمادبت في غي وفي لعب

وقال:

نهضت وقـد قعدن بي الليالي فـلا خيل أعـن ولا ركـــــاب
سلخطبها بحد السيف فعـــلا إذا لم يغن قـــول أو خطـــاب
وأخذها وان رغمت أنـــوف مغـالبة وإن زلـت رقـــــاب

وقال:

أراح بني عـامر دلهـــــم وعـرضنا عـزنا للتعـــــب
وفزنا عليهم طـريق البقـــاء وخـلوا لـنا عن طريق العـطب

وهكذا تجد الشريف يتشمخ ويتباهى بخيمه وكوره ويضع نفسه في السلسلة الماجدة من آبائه التي اتصل فيها سبب الشرف، وأنجب فيها المجد. وقد اعتاد في شعره أن يستهل قصائده بذكر الناقة والبيداء وصهوات الجياد والسيف والدم وقعقعة الأسنة ونخوة الشوس البهاليل، ثم يعرج على التخلص إلى الغرض الذي انشئت له القصيدة كما يفعل الشعراء في استهلال قصائدهم، بالغزل والنسيب، ولا تكاد تستعرض الصفحة أو الصفحتين من ديوانه إلا وتجد تلك الروح المتحمسة الوثابة ماثلة بين عينيك.

قال أخوه المرتضى(رحمه الله) في مقدمة كتابه "الناصريات":

وبعد: فان المسائل المنتزعة من فقه الناصر(عليه السلام) وصلت إلى أن يقول: وأنا بتشييد علوم هذا الفاضل البارع أحق وأولى، لأنه جدي من جهة والدتي، فهي فاطمة بنت أبي محمد (أبي الحسن خ) الحسن بن أحمد أبي الحسين صاحب جيش أبيه الناصر الكبير، أبي محمد الحسن

بن احمد بن الحسين بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر بن علي السجاد زين العابدين بن الحسين السبط الشهيد بن أمير المؤمنين(عليه السلام) (وفي نسخة بعد قوله الكبير أبي محمد الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي السجاد(عليه السلام) والناصر كما تراه، من أرومتي وغصن من أغصان دوحتي، وهذا نسب عريق في الفضل والنجابة والرئاسة. أما أبو محمد الحسن الملقب بالناصر ابن أبي الحسين أحمد الذي شاهدته وكاثرته، وكانت وفاته ببغداد سنة ٣٦٨هـ. فانه كان خيراً فاضلاً ديناً نقي السيرة جميل النية حسن الأخلاق كريم النفس، وكان معظماً مبجلاً مقدما في أيام معز الدولة وغيرها. لجلالة نسبه ومحله في نفسه، ولأنه كان ابن خالة بختيار عز الدولة. فان أبا الحسين أحمد والده تزوج دير حجر (كذا) صحير (كذا خ ل) بنت سهلان كساء الديلمي وهي خالة بختيار وأخت زوجة معز الدولة. ولوالدته هذه بيت كبير في الديلم وشرف معروف. وولى أبو محمد الناصر جدي الأدنى النقابة على العلويين بمدينة السلام عند اعتزال والدي رحمه الله لها سنة ٣٦٢هـ. فأما أبو الحسين أحمد بن الحسن فانه كان صاحب جيش أبيه، وكان له فضل وشجاعة ونجابة ومقامات مشهورة يطول ذكرها. وأما أبو محمد الناصر الكبير وهو الحسين (الحسن خ ل) بن علي ففضله في علمه وزهده وفقهه أظهر من الشمس الباهرة، وهو الذي نشر الإسلام في الديلم، حتى اهتدوا به بعد الضلالة وعدلوا بدعاته عن الجهالة، وسيرته الجميلة أكثر من أن تحصى وأظهر من أن تخفى، ومن أرادها أخذها من مظانها، فاما أبو الحسن علي بن الحسين، فانه كان عالماً فاضلاً. وأما الحسين بن علي.

فانه كان سيداً مقدماً مشهوراً لرئاسته. وأما علي بن عمر الأشرف فانه كان عالماً، وقد روي الحديث. وأما عمر بن علي بن الحسين ولقبه الأشرف، فانه كان فخم السيادة جليل القدر والمنزلة في الدولتين معاً الأموية والعباسية، وكان ذا علم. وقد روى عنه الحديث. وروي أبو الجارود وزياد بن المنذر قالا: قيل لأبي جعفر(عليه السلام) أي أخويك أحب إليك وأفضل فقال أما عبد الله فيدي التي أبطش بها. وكان عبد الله أخاه لأبيه وأمه، وأما عمر فبصري الذي أبصر به، وأما زيد فلساني الذي أنطق به. وأما الحسين فحليم يمشي على الارض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. انتهى كلام المرتضى. وقد نقلناه بطوله لما فيه من الفوائد التي تبصرنا بحالات الشريف النفسية.

وظائفه في الدولة وألقابه

وظائفه

النظر في أمور الطالبيين في جميع البلاد. نيابة الملك في مدينة السلام. الخلافة على الحرمين.

النقابة:

يدلنا التاريخ أن وظيفة النقابة في القرون الأخيرة من العهد العباسي كانت ضرورية في تشكيلات الحكومات الإسلامية، ولابد منها لأجل سلامة الدولة.

من المعلوم أن انهيار العرش الأموي، كان نتيجة المؤامرات والثورات المتتالية التي كان يدبرها الهاشميون تحت الستار.

ولما استقامت الدعوة واستتب لهم الأمر، وتنسم الهاشميون نسيم الحرية وشعرت شخصياتهم البارزة أن محاولة رد الحق المهتضم يمكن تحقيقها من ذلك الطريق، طمح من يرى أنه الأجدر والأولى بالحكم، ومن جهة أخرى كان العلويون على الأخص يتهضمون. لأن الأمر لم يرجع لمستقره، وما كانت مناصرة الخراسانيين والجماهير التي قامت في وجه الحكم الأموي إلا ولاء لهم ورغبة في خلاصهم، والسلطة العباسية كانت تشعر بذلك وتحسب له حسابه. فأعملت سلطانها وتدابيرها السرية وأنفقت جهدها في قمع تلك الروح العدائية العلوية والبطش بها. وظني أن كلمة (زيدي) صارت لقباً لكل ثائر في وجه الحكم في الأدوار العباسية، ولمن يشايع الثوار وينـاصرهم. لأن زيداً (عليه السلام) هو أعظم الثائرين من هذا القبيل، والمتبع والمقتدي

وخرجت كلمة (زيدي) عن كونها لقب نحلة و عقيدة حتى تسمى بها كل من ثار أو تحمس للثورة، وإن لم يكن زيدياً يدين بهذه النحلة ويؤمن بها، كالشريف الرضي الذي ستقف على عقيدته.

ولما أخل الحكم العباسي واستبد الأمراء والملوك في أقطار الدولة، كان شرر الدعوة العلوية يتطاير وأشرافها يتواثبون على السلطان، ومن جهة أخرى كان الناس وملوكهم يرون العلويين، الطبقة الممتازة التي لا يصح أن تشترك مع الجماهير في إقامة الحدود السياسية عليها، فكان من التدبير اللازم أن يترتب في ملاك وظائف الدولة وظيفة -النقابة- ويكون صاحبها ذا سلطة واسعة، وهي شبه حكومة في ضمن حكومة، لها أنظمة خاصة وقوانين استثنائية. والنقيب الذي يستخلف عليهم ويرعاهم ويتزعمهم، هو الذي يتصل ببلاط الدولة يتلقى أوامرها، وهو المسؤول عن أتباعه والقاهر لهم على النزول على مقدرات الحكم ويتولى تدبير شؤونهم وإحصاء نفوسهم وتطهير أنسابهم من الدخلاء ، فلا تمس كرامتهم من ولاة الدولة وحكامها في إقامة العدل فيهم والتنكيل بما يخشى منه، وللنقيب تقدير خاص ورتب سامية، وتعظيم واحترام من ولي الأمر، ويقول ابن خلدون، في كلامه على بعض الوظائف:

(وكذا نقابة الأنساب التي يتوصل بها إلى الخلافة أو الحق إلى بيت المال) انتهى.

ويحدثنا ابن بطوطة بقوله: ونقيب الأشراف مقدم من ملك العراق، ومكانه عنده مكين ومنزلة رفيعة، وله ترتيب الأمراء الكبار في سفره، وله الأعلام والأطبال، ولقد سمى الظهير والمرسوم الذي يصدر من

السلطان في إسناد النقابة (اليرلغ). وجاء في كتاب "المصطلح الشريف" ذكر الشؤون التي يكلف بها النقيب وهي:

١ـ رفق بأولاد أمه وأبيه حيدرة والبتول(عليها السلام).

٢ـ كف من استطال بشرفه فمد إلى العناد يداً.

٣ـ إزالة البدع التي ينسب إليها أهل الغلو في ولائهم، فيما يوجب الطعن على آبائهم، من افتراق ذات البين. وجر أقوام إلى مصارع البين فللشيعة عثرات لا تقال، فليسد هذا الباب سد لبيب.

٤ـ النكال بمن ادعى الاعتزال أو مال إلى الزيدية أو اقتفى طرق الإمامية فيما ابتدعوه، أو تمسك من عقائد الباطن بظاهر، أو تعلق بأئمة السر أو انتظر مقيماً برضوى، أو ربط على السرداب فرسه أو اشترط العصمة في مطلق الأمام.

٥ـ النظر في أمور أنسابهم نظراً لا يدع مجالاً للريب.

وجاء في المنشور الصادر من ديوان الخلافة للمطيع لله، بتقليد نقابة الطالبين لأبي أحمد الحسين والد الشريف بمدينة السلام وغيرها من الأمصار من تلك الشؤون:

١ـ أحترامهم والعطف عليهم.

٢ـ من ارتكب منهم قبيحاً يعود على ديانته بجرح، لا يعجل عليه بالنكال بل لابد من عذله وإنذاره قبل ذلك، فان ارتدع وإلا أقيمت عليه الحدود.

٣ـ أن يبث عليهم العيون والأرصاد لينهوا إليه أبناءهم، ليكف من خرج عن الطاعة عن غيه.

٤ـ مخاطبتهم بالاحترام.

٥ـ حماية المناسب ثم المقابلة بغليظ العقوبة لمن ادعى نسبهم.
٦ـ تولى استيفاء الحق منهم بإيعاز حكام المسلمين.
٧ـ له أن يتخذ خلفاء عنه في الأقطار.

هذا شيء من أحكام النقابة وقوانينها أثبتناه هنا للتعرف بشخصية الشريف وكرامته الاجتماعية، وفيه فوائد لا تخفى على اللبيب، ويعلم مما أثبتناه أن النقابة لا ينالها إلا الأكفاء من الطالبين النابغين، ذوي الدرجات الشامخة في العلم والقلم، والأدب والنسب، وباقي مميزات التفوق، ولقد كان الشريف لا يرى أحداً أحق منه ومن أبيه بها. وكانت بينه وبين أخواله منافسات حول التزاحم عليها، وربما كان ذلك من دسائس الخلفاء العباسيين تمسكا بمبدأ تلك الكلمة الخبيثة المأثورة (فرق تسد) وقد تحسدوا توليه وتولى أبيه لها، ومن أجل ذلك كان يتذمر منهم في شعره ويشنأهم بأن أشخاصهم لم يكونوا أهلاً لمدائحه، وإذا مدحهم فأنما يمدح نسبه المتصل بأنسابهم، فمن ذلك قوله لأبي الحسين في آخر القصيدة التي يهنيه بها:

إذا مدحتُكَ لمْ أمْنُنْ عليكَ بـــه فالمدحُ بالسبكَ والمعنيُ بهِ نسبي

وقد عتب عليه فاعتذر له بقصيدة اكثر فيها من مدائحه الشخصية مطلعها:

لكَ السوابقُ والأوضاحُ والغُرَرُ وناظرٌ ما انطوى عن لحظِهِ أثـرُ

ولقد ولي النقابة والد الشريف ثم اعتزلها سنة ٣٦٢هـ، فوليها أبو محمد الناصر، ثم أعيدت له ثم وليها أحمد العمري، نسبه إلى عمر الأشرف أحد أخوال أم الشريف، وذلك مدة اعتقال والد الشريف بالقلعة بفارس، وهي عشرون سنة. ولما أفرج عنه وعاد ردت إليه. ولما

شاخ وليها الشريف نيابة عنه، واستقلالا بعد وفاته على أصح الروايات. وهو في ذلك تارة يستقيل عنها وأخرى ترجع إليه، وإذا وليها تشدد في إقامة الهيبة لها، وقد يضيق صدره منها لأنها دون حقه وفيها اصطناع، ومنّة لمن أسندها إليه، وفي ذلك يقول:

ولـــي أنف كأنف الليث يأبى ... شميمـــي للمذلـــة استيافي

إذا عد المناقب جـــاء بيتـــي ... بجر ذيول أحسـاب ضوافـــي

ويقول لما واصل الاستقالة عنها واسندت لمن بذل عليها الأموال سنة ٣٤٨ هـ:

محمدٌ طالما شمـرّت فيهـــا ... فدونكَ فاسحبْ الذيل الرفـــلا

يراه المستعيرُ عليَّ طوقـــا ... فيغبطني بـه وأراه غـــلا

ويروي لنا ابن أبي الحديد، إن أبا الشريف توفي وهو متقلدها، ثم أن الشريف تولاها بعد وفاته واختلف في السنة التي تولاها نيابةعن أبيه هل هي سنة ٣٨٨هـ أو سنة ٣٨٠هـ؟ ويشهد لهذا القول الرواية الآتية للسنة التي أنشد فيها حاجب الطائع قصيدة الشريف في مدحه.

والذي ولي الشريف الطائع لله، وأقام لذلك احتفالا خلع فيه على الشريف ايراد النقابة، ورتبة رتبة أبيه، وهي أشرف المراتب وكان أول طالبي جعل عليه السواد، وفي ذلك يقول شاكراً:

الآن أعربت الظنـــون ... وعلا على الشـك اليقينْ

إلى أن قال:

وأضاء لـي زمني وأيامْ ... الفتـى بيـضْ وجـــونْ

فأفيضت الخلع السـوادْ ... علـــي ترشفهـا العيونْ

وكان صنيع الطائع هذا جزاء على قصيدته التي يمدحه بها ويتنجز وعده بالأذن في الوصول إلى حضرته، والتي أنشدها حاجب الطائع ابن عبد العزيز سنة ٣٨٠هـ على ما روى، والتي مطلعها:

متى أنا قائم اعلى مقامي ... ولاق نور وجهك والسلام

وفي سنة ٣٩٧ هـ أول يوم جمادي الأول[1] بعث إليه بهاء الملك من البصرة إلى بغداد مرسوماً بتولية النقابة وأمارة الحج.

والنقابة وظيفة في الدولة، لا تكتسب صفتها الرسمية ما لم تصدر بها إرادة ملكية من البلاط أو ممن يمثله ويخول له ذلك.

وكان الصاحب عميد الجيوش قد كلف الشريف في ذلك اليوم، النظر في تلك الأعمال وألزمه بها في بغداد فقط ـ فكان ذلك اتفاقاً غريباً. وقد ثقل ذلك على بهاء الدولة لما بلغه، لأنه كان يؤثر أن يكون هو المبتدي بالمنة والسابق للصنيعة. فكتب إليه الرضي يعتذر من قبولها من عميد الدولة من قبل أن يصل إليه ظهيره بذلك قصيدة مطلعها:

كيف أضاء البرقُ إذا ومضا ... منابت الرمث بذات الغضا

ومنها:

قل لبهاء الملك إن جئته ... سود دهري بك ما بيضا

وقد حسده أعداؤه على تقلده للنقابة، وقلقوا لما جرى له من مراسم التقليد. ولكن الشريف يراها دون حقه ولا تشبع مطامعه السياسية إلا الخلافة وفي ذلك يقول:

---

(١) ويروى في جمادي الآخر.

قلقَ الغمدووقدْ حظيتْ برتبةٍ ... تعلو عن النظراءِ والأمثالِ
لو كنتُ أقنعُ بالنقابةِ وحدَها ... لخصصتُ حينَ بلغتُها آمالي
لكنْ لي نفسٌ تتوقُ إلى التي ... ما بعدَ أعلاها مقامٌ عالي

ثم ان بهاء الدولة امر في يوم ١٦ من المحرم سنة٤٠٣ هـ أن يضاف إلى أعمال الشريف، النظر في أمور الطالبيين في جميع البلاد. ويروي أنه لم يبلغ ذلك أحد من أهل هذا البيت. واجتمع الناس في دار فخر الملك لاستماع الكتب الواردة بذلك، وفي هذا يقول الشريف:

من بني ساسان أقنى ضرب ... حجرُ الملكِ عليه والسددِ
ما رأينا كأبيه ناجلا ... ولد الناسَ جميعا بولدِ
أن يكنْ تاجا وعضدا فلهُ ... درةُ التاجِ ودملوجُ العضدْ
يا معيدَ الماءِ في عُودي ويا ... مثبتي بعدَ اضطرابٍ وأودِ
كُلُ يومٍ لكَ نُعمى غضةٌ ... تعقدُ الفخرَ بأطواقِ جُددْ

والشريف لا يرى أحداً أحق وأجدر منه بالنقابة ولكنه يزهد فيها، وتتوق نفسه لما هو أسمى منها، وإنما يتنازل لقبولها لأنها من حقوق أسرته، وفي ذلك يقول:

قلْ للعِدى مُوتوا بغيظِكُم ... فإنَ الغيضَ مردي
ودعوا علا أحرزتها ... يا واد عين بطول جهدي
ولي النقابة خالُ لمي قبل ... ثمَ أبي وجدي
وليتُها طفلا فهلْ ... مجدٌ يعدلُ مثلُ مجدي
وأظنُ نفسي سوفَ تحملني ... على الأمرِ الأشدِ
حتى أرى متملكا شرقَ الطُلى ... والغربِ وحدي

وفي هذه الأبيات شواهد على تاريخ تولي النقابة أسرة الشريف تداولها، ومتى تولاها الشريف نفسه.

إمـــارة الحـــج:

إن إمارة الحج سلطة مطلقة، وحكومة سيارة محدودة يتولاها أمير الحج بإرادة ملكية على حجاج أقطار معينة لا تتعداها، وربما تتعدد الأمراء في عام واحد لأقطار مختلفة.

وقد أحصى المسعودي في كتابه "مروج الذهب" أمراء الحج إلى زمانه. والأمير حاكم مطلق في القضاء بين حجاجه وقطع خصوماتهم وفي حلهم وترحالهم ودفع الأخطار عنهم وإقامة العدل حسب مشيئته المطلقة فيما بينهم.

ولابد من هذه الإمارة في تلك القرون، عندما يتقلص نفوذ الدولة ويفتر الحكم في البوادي القفار، ويتوغل الحجاج فيها ويتعرضون للأخطار. والأمير زعيم مسؤول مزود بقوة مسلحة، وذو كرامة شخصية واسعة، يعتصم بهما قطار السفرة عند الأصحار من الغزاة والمغيرين الذين يسدون المنافذ إلى بيت الله الحرام. وقد كان يصدر بها من ديوان الحكم مرسوم خاص للأمير ينهيه الملك ويمضيه الخليفة. وقد جاء في المرسوم الذي قلد به أبو الشريف الرضي إمارة الحج، وكان من إنشاء (الصابي) قوله:

(فأنهى معز الدولة أبو الحسين أحسن الله حياطته أمر رفاق الحجيج الشاخصة من العراقين وايثار تقليد تسييرها إلى الحرمين الاعتماد عليك في حمايتها وتوليك الحرب والأحداث فيها فوافق رأي معز الدولة أبي الحسين تولى الله كفايته الصواب ووقع عند أمير المؤمنين موقع القبول والإيجاب فاستخار الله وأمضاه إلى أخره).

وفي هذا المرسوم قلده إمارة حجيج مدينة السلام، والبصرة والكوفة وذكر له وجائب هي:

١ـ حياطتهم ورفاهيتهم في المسير.

٢ـ المساواة بين ضعيفهم وقويهم وشريفهم ومشروفهم.

٣ـ منعهم من الزحام والتجاذب وذلك بترتيب قوافلهم.

٤ـ صد أوائل القوافل عن التسرع وحواشيها عن مفارقة المنهج.

٥ـ أن يكون مسير الأمير على الساقة لئلا ينقطع منقطع.

وقد روى المسعودي في مروج الذهب، أن إبراهيم بن موسى بن جعفر(عليه السلام) **(الجد الأعلى للشريف)** هو أول طالبي أقام للناس الحج في الإسلام. ثم قال: **(على أنه قام متغلباً عليه، لا مولى من قبل خليفة)**. انتهى.

وقد ناقض بهذا قوله في أحوال المأمون: **(أنه حج بالناس إبراهيم بن موسى بن جعفر أخو الرضى بأمر المأمون)**. انتهى.

ولا ريب أنه أراد بقوله أقام الحج أنه أمير الحج بقرينة قوله لا مولى من قبل الخليفة، وبقرينة ما ذكره في أحوال المأمون، ويمكن الجمع بين كلاميه بتكلف.

ويحدثنا ابن بطوطة، أن عند أمير الحج نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها، وجمالا لحمل زاد الصدقة، ومعه الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض، وجمالا لمن لا قدرة له على المشي، وان ذلك يكون من صدقات السلطان. وللركب وقطارهم أصول متبعة وأنظمة مرعية، وإرادة أميرهم فوق كل إرادة، وتحت لوائه العدة والعدد يدفع بها عادية الأعراب التي تهاجم قطاره للسلب والنهب.

والشريف قد مارس إمارة الحج منذ صباه ، تولاها في أغلب أعوام عمره وزيراً لأبيه، ونائبا عنه، ومستقلا فيها. وقد تذوق في ذلك منذ نشأ ما افتتنت به نفسه وخالط أعماقها من المطامع والمطامح السياسية. وكانت هذه الأمارة تجربة ومثالا مصقولا مصغرا من تلك الرتبة السامية، والشأن الإسلامي العظيم الذي يتوق إليه. ويرى أنه الأجدر به من أولئك المهتضمين المتطفلين، وقد أذكت في نفسه شعورا عميقا ملتهبا. فكان إذا رجع إلى بغداد وتطامن لأحكام السلاطين والخلفاء، وانتقل من دور سيد إلى مسود ومن سلطان إلى رعية، أضجره الحال ويئس من ذلك وطفق يتذمر من عاصمة العباسيين، منقطع إمارته ومنتهى تخومها فيقول سنة ٣٢٤هـ:

مالي لا أرغب عن بلدةٍ ... ترغبُ في كثرةِ حُسّادي

ما الرزقُ بالكرخ مُقيمًا ... ولا طوقُ العلى في جيد بغدادِ

ويحن إلى تلك البوادي والقفار التي يتلابس فيها مع السلطة والأمارة، والتي فيها طوق العلى. ويتعشق مضارب أطنابها ومراتع غزلانها، وتطيب نفسه بذكرى تنسم نسمات أجوائها ومشاهدة أطلالها، ويستعرض فيها تاريخ الغابرين من أشياخه، وهي مغرس مجده وفيها مستنبت دوحة العلى، فكان يبدع في شعره عند ذكرى ذلك، وتفيض علينا قريحته بأرق ما نقرأ في ديوان شعره فيقول:

عارضا بي ركبَ الحجازِ أسا ... ئلُه متى عهده بسكان سلع

فلعلني أن أرى الديارَ بطرفي ... فلعلي أرى الديارَ بسمعي

ويقول:

يا قلب ما أنت من نجد وساكنه ... حلفت نجدا وراء المدلج السارِي

يا راكبان قفالي واقضيا وطري ... وخبراني عن نجد بأخباري
أهل البيت وداري عند كاظمة ... داري وسمارُ ذاك الحي أسماري

ويقول:

أراكَ مستحدث للقلب وجْدا ... إذا ما الضعائنُ ودعْن نجدا
إذا أطلعَ الركبُ بمتنه ... أحي الوجوه كهولا ومردا
وأسألهم عن جنوب الحمى ... وعن أرض نجدٍ ومن حلّ نجدا
لنا من تعج الورى بأسمه ... إلى الله ندعوه في المجد جدا
بنا اتقذ الله هذا العريبَ ... حتى استقام إلى الدين فردا

ويقول:

خذي نفسي يا ريحُ من جانب الحمى ... فلاقي بها ليلاً نسيمَ ربى نجد
شممت بنجد شيحة حاجرية ... فامطرتها دمعي وأفرشتها خدي

ويلتهب الوجد فيه فيذيب عاطفة الأسى في عاطفة الأسف ويمزج ما بينهما فيقول:

فلله ما أجمعُ المأزمان ... وجمع لقلبي والمسجدِ
يضاع فينشد قعب الغبوق ... وقلبي يُضاع فلا ينشُدِ

ويقول عند توجه الناس للحج سنة ٤٠٠ هـ:

أقول لركب رائحين لعلكم ... تحلون من بعدي العقيق اليمانيا
خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى ... ونجدا وكثبان اللوى والمطاليا

وفي طريق الحج معاطب وأهوال، ومخاوف ومقارعة أبطال، ففي سنة ٣٨٩هـ حج الشريف فأعتقل في أثناء الطريق هو والمرتضى ابن البراج الطائي فافتديا من أموالهما بتسعة آلاف دينار. ذكر ذلك في كتاب إتحاف الورى.

وفي الحجيج مطمع وسلب أموال ونشب، فهو مرعى الغزاة وأكلة القطاع، وفيه تروج سوق البسالة، وتغلو سلع التضحية وتنفق بضاعة الفتوة وتستمجد البطولة، فكان تردد الشريف في ذلك الطريق في أعوام كثيرة من عمره، يوجب أن تتولد في نفسه مزايا النخوة، والذب عن كرامة المعاصم، وتزكو فيها الفحولة وخيلاء الشجعان، وترتاح لعجيج الخيل تحمى الذمار من الذمائر، وتستنغم مطربة لاصطكاك القنا ووقع الحديد، وقد نفخت تلك الأحوال روحا في شعر الشريف وتيمته إلى مواقعتها، وملأت ديوانه بوصفها، وصيرته بحق شاعر الحرب، شاعر النخوة، شاعر الفحولة، شاعر الحديد والدم، ولو أردنا أن نورد شاهدا على ذلك من شعر الشريف لأوردنا شعره كله.

ولا تنكشف الكرب كلها في البوادي والقفار، ولا يستطيع السيف وحده أن يحمي القطار، بل لابد من الموفاة بعد ذلك إلى المصانعات، وشد الصلات بالأمراء والسراة المالكين على نواصي البوادي، المتنفذين بأقوامهم في مجاهلها والمصرفين لمقدراتها، ولابد للشريف أن يعمل هذا التدبير.

ومودته (لابن ليلى) كانت من هذه الناحية، ثم اطردت واستدرجت الشريف إلى أن كان يفشي إليه بسرائره وأمانيه وخواطره وما يجيش في نفسه وكان يقع ذلك في جو ملائم، وكأنما ظفر كل واحد منهما بصاحبه الذي لا يستغني عنه، ووزيره إلى الغاية التي يطمح إليها، فمن هذا الأعوان والفرسان ولذاك الخلافة والسلطان وفيهما المزايا متوفرة.

ولقد وجدت دعوة الشريف في ابن ليلى تربة طيبة لأن تزكو فيها مطامعه ومطامحه ومنبتا خصبا تنمو فيه. وسيتضح لك أن الشريف كان يقيم أمنيته على دعائم ثلاث :

مواهبه الشخصية، وابن ليلى، والصابي، وكل واحد منها يكمل به النقص من ناحية وهي عناصر نجاحه.

و(ابن ليلى) شخصية مجهولة، افتنت كما فتن الشريف بشخصيته. ولكن متاعبي في التفتيش والفحص عنه كاعتماد الشريف عليه، ما ربحنا منهما إلا الخسران.

(ابن ليلى) لا يعرفه المتتبع في أسفار الأدب والتاريخ، إلا في ديوان الشريف ففيه يعثر بطود من المجد أشم ويغرق في بحر من الجود خضم، ولا ريب أن في مدائح الشريف له مبالغة وخيال. ولكن واحد من المئة يكفينا لأن نعرف أن أبا العوام من شخصيات التاريخ العربي البارزة يرفعه الشريف بمدائحه حتى يضعه على هام العيوق، ويبكي لفقده حتى يندى الثرى بدموعه، ويتشوق إليه حتى لا يمر الكرى بأجفانه، ولا ريب أنه كان من سراة البوادي، وكان عظيما من عظمائها. ولو لم يكن عظيما بهذه الدرجة لما استفز خيال الشريف إلى هذا الحد، إلا أنه قد أطبقت عليه القرون ولم يحس به رجال التاريخ، ولطعه النسيان من صفحات القفار.

ومن الجائز أن تكون مودة الشريف له موروثة من أبيه، وقد تأسست لأبي الشريف مودات كثيرة لأقطاب البوادي في غدوه ورواحه بين الحجاز والعراق، وهاك ترجمة ابن ليلى من شعر

الشريف. ففي قصيدته التي يصف فيها سفره الى مكة يقول سنة ٣٩٤هـ:

أخ لي إنْ أعيت عليَّ مطالبي ... رمى لي أغراض المنى فاصابها
به خف عني ثاقل فادحة النوى ... وحبب عندي نأيها واغترابها
بعين ابن ليلى لا تداوي من القذى ... يريب أقاصي ركبه ما أرابها

وابن ليلى هذا أبو العوام لقوله:

كأنك لم تفد بعويرضات ... أبا العوام فتيانا قطاطا
ومن جعل الدليل له ابن ليلى ... فلن يخشى الضلال ولا الغلاطا

ولقوله في رثاه بأسلوب بدوي، يتناسب مع سمات ابن ليلى أبي العوام البدوية:

ما هاج من ذي طرب مخماص ... ليلى أبي العوام والقلاص
أين أبو العوام للعواصي ... يروضها والخيل والدلاص
قاد ابن ليلى قائد المعتاصي ... كان سباغي فغدا اغتصاصي

وليس هو عميدا آخر يتحصن الشريف بنفوذه، ويستغله لدفع الأخطار والفوز بالأماني، كان مثل ابن ليلى لهذه الشواهد التي أوردناها. إلا أن الذي في ديوان الشريف المطبوع في بيروت ما ينافي ذلك. فقد جاء في ترجمة الأبيات التي يقول فيها:

قل لأبي العوام مستدفعا ... به جماح القدر النازل
يا نجوة الخائف من دهره ... ويا ثقاف الخطل المائل

إنها أنشئت سنة ٣٩٨ هـ وجاء في ترجمة أبياته التي أولها:

تعيف الطير فأنبأ أنه ... أن ابن ليلى علقته علوق

إنها أنشئت سنة ٣٩٣هـ في رثاء ابن ليلى البدوي، ويمكن أن ترتفع المنافاة إذا تركنا ظاهر الترجمة، إلا إنني لا أعتمد على هذه النسخة المطبوعة في بيروت، فان فيها من الأخطاء في الطبع والوضع شيئا كثيرا يضيق المجال عن إيراده، وابن ليلى أبو العوام اسمه عمرو ولقوله في رثائه:

أداري المقلتين من ابن ليلى ويأبى دمعها إلا لجاجا
وأين لفارس الفرسان عمرو إذا رزء من الحدثان فاجا

وابن ليلى أبو العوام عمرو هذا هو من بني عامر ابن لوي، وقد قتله رجل من بني تميم لما دعا بني تميم لدعوة الشريف فخالفوه فرثاه بقصيدة هي من مختار ما يروى من شعره في الفن الذي يمتاز به شعر الشريف، وهو الرثاء والحماسة:

لعمر الطير يوم ثوى ابن ليلى لقد عكفت على لحم كريم
وأقسم أن ثويك يا ابن ليلى لمجموع على عرض سليم
أأرجو للحواضن كابن ليلى أحلت الدن على بطن عقيم

وكان الشريف يعتمد على ابن ليلى في البادية وهو جيشه المجهز، ويعتمد في العاصمة مستقر الحكم والسلطان على الصابي، وهو الذي يربأ له في دواوين ، ويرشده في مداحض السياسة. وسأريك هنا شيئا من وجه الصلات بينهما.

الصابي والشريف: أما أسباب المودة وموجبات الصلات ما بينهما فهي أمور:

١ـ مودة الصابي لوالد الشريف التي نشأ عليها الشريف.

٢ـ علائق الصابي مع بختيار وستعرف صلات الشريف مع بختيار.

٣ـ الأدب وهو لحمة كلحمة النسب.

٤ـ إن فحولة الشريف وكفاءته وكرامته ولدت في نفس الصابي عقيدة فوز الشريف في محاولته الخطيرة وبهذا الفوز ضمان المستقبل.

٥ـ خبرة الصابي وتجاربه رغبت الشريف أن يحصر اعتماده على ذلك الشيخ المجرب.

٦ـ اتفاقهما على مقت العاهل العباسي ورئيس الدولة.

أن أبا إسحاق ممن حلب الدهر أشطره وذاق حلوه ومره، ولابس خيره ومارس شره، ورئس ورأس وخدم وخُدم، وكان يحسن المعاشرة مع المسلمين، يصوم معهم شهر رمضان، ويحفظ القرآن حفظا يدور على طرف لسانه. ازدهرت أيامه في عهد المهلبي، فلما هلك اعتقل ثم أفرج عنه وأعيد عمله ولم يزل ينخفض ويرتفع حتى نكبه عضد الدولة بسبب ظهير أنشأه على الخليفة في شأن (بختيار) عز الدولة، ولما ملك عضد الدولة بغداد وسائر العراق دبر تدبيرا للفتك بأبي إسحاق، فأمره أن يألف كتابا في أخبار الدولة الديلمية فأمتثل الأمر وسمى كتابه "التاجي" ومكر له بخلق أسباب النكال لزلة يؤاخذه بها، فان الدولة لا يخلو تاريخها وتاريخ ملوكها عن مظالم وهفوات، ومساو وسيئات، إن أوردها أو لم يوردها فهو واقع في الفخ الذي دبر له. وربما يكون منها ما هو في شأن رجال يرغب عضد الدولة ذكرهم بالسوء. ولكنه في

ذلك الوقت يُعدّ ذلك جريمة من أبي إسحاق لا تغتفر، إلا أن الكيد والمكر اللذين خادعه بهما، لم يحتج إليهما في إرواء أحقاده من أبي إسحاق. فقد دخل عليه بعض من أصدقائه وهو في شغل شاغل بكتابه فسأله عما يعمل؟ فقال: «أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها» ولعله قد أعجل بعضد الدولة حقده عليه فمكر به وأرسل إلى الصابي خائنا من أودائه يتهمه بهذه المقالة فلا يظن فيه أنه يتهمه بذلك، ولما سمعها عضد الدولة أمر به أن يوطأ أخفاف الفيلة، فشفع فيه رجال الديوان يقبلون الأرض من بين يديه، فعفا عنه وأمر بالقبض عليه، واستقصى أمواله ومصادرتها وبقي في اعتقاله بضع سنين، ثم أفرج عنه وقد ساءت حاله.

أترى أن أبا إسحاق لم يكن من الناقمين على الدولة والشانئين لمليك البلاط، وقد أفقده العدم وكبر السن أن يستعيد مقامه الأول. وشخص مثل أبي إسحاق نشأ في أحضان الدولة وملك ناصية أمرها، وبلغ أقصى درجة فيها. إذا خسر مقامه وطرد من ابوابها، لابد أن يتصل ويميل إلى من يرشح نفسه ويعدها ويستعد للتوثب عليها، وهدم عروشها ويرى أن من حقه سلطانها وهؤلاء جميعا لابد أن يستكتلوا فئة وحزبا، ويتفاهموا عصابة وحربا، ولقد كان من أهم الأسباب للفتك بأبي إسحاق ممالأته لبختيار الذي كان كاتب إنشائه وكلمته في حقه، وبختيار هذا كما علمت، ابن خالة جد الشريف لأمه. الأمر الذي كان من أهم أسباب الصلة بين الشريف والصابي منكوب عضد الدولة -الذي فتك ببختيار وجنوده كما هو معلوم في التاريخ- وأبو إسحاق أديب، يستهويه الخيال ويتحول في نفسه إلى حقيقة ماثلة، فكان

لحماس الشريف ونزعاته الخيالية مأخذ في نفسه يستضيء به لنيل آماله واستعادة كرامته، وأبو إسحاق وإن كان متشددا في أصل الدين ولكنه يقيم بعض الشعائر الإسلامية، وله في ذلك غايات، وهذا من الملق الذي يحذقه أصحاب الملوك. كل ذلك شد مواثيق المودة ما بينهما، وربما كان الشريف يطمع في إسلامه على يده، كما أسلم مهيار على يده، وبلغت مودة الشريف له أن يقول فيه، ولقد عرضت له زمانه صار يحمل لأجلها في محفة:

ولو أن لي يوم على الدهر إمرة ... وكان لي العدوى على الحدثان
خلعتُ على عطفيك برد شبيبتي ... جواداً بعمري واقتبال زمانـي
وحملتُ ثقل الشيب عنك مفارقي ... وان قل من غربي وغضّ عناني

وهذه هي الغاية فيما يتمناه صديق لصديق ومما يفصح عن نوع الصلة التي بينها قول الصابي في حق الشريف:

أبا حسن لي في الرجال فراسة ... تعودتُ منها أن تقول فتصدقا
وقد خبرتني عنك أنك ماجدٌ ... سترقى من العلياء أبعد مُرتقى
فوفيتك التعظيم قبل لوائه ... وقلتُ أطالي الله للسيد البقا
وأضمرتُ منه لفظة لم أبحْ بها ... إلى أن أرى أطلاقها لي مُطلقا

وجواب الشريف له:

لان ابرقت مني مخايل عارض ... بعينك يقضي ان يجود ويغدقا

الى ان يقول:

أشاطرك العز الذي أستفيده ... بصفقة راض إن غنيت وأملقا
فتذهب بالشطر الذي كله غنى ... وأذهب بالشطر الذي كله شقا

ولما توفي أبو إسحاق سنة ٣٨٤ رثاه بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

أرأيتَ مَنْ حملوا على الأعواد ... أرأيتَ كيفَ خبا ضياءُ النادي
قد كنتُ أهوى إنْ أشاطرهُ الردى ... لكنْ أرادَ اللهُ غيرَ مُرادي
الفضلُ تاسبَ بيننا إنْ لم يكُنْ ... شرفي مناسبُه ولا ميلادي

وللمرتضى هنا كلمة في حق الصابي معروفة.

والدة الشريف: ولوالدة الشريف البرزة الرزان التي كانت تقص عليه مآثر آبائها وترضعه مع درها أماني النقابة والخلافة، وتنفحه بالمال في ذلك السبيل، أثر في مودة الشريف للصابي (كاتب بختيار الدولة) التي تتصل معه بصلة رحم، وعدو عضد الدولة الذي فتك به، والسلطات الفردية من شأنها أن تعتمد المداهنات، واستغلال وشائك الشخصيات واستدراج السراة والذوات، ثم من بعد ذلك تفترس الشعوب المحكومة لها وتشبع منها شهواتها. وعلى هذه الأسس الفردية تكون الخطوة أو النكبة.

ولما توفيت سنة ٣٨٥هـ جزع الشريف على وفاتها جزعا شديدا، وفي قصيدته التي يرثيها بها ألماع لما ذكرنا، فمنها:

وَمَنْ المعول لى إذا ضاقت يد ... ومَنْ المُعلِل لي من الأنواء
لَو كانَ مثلكِ كُلُّ أم بَرةٍ ... عَنَى البنونَ بها عن الآباءِ
أبناكِ العُرْ الذين تفجرتْ ... بهمُ ينابيعُ من النُعماء
منْ ناصرٍ للحق أوْ داعٍ إلى ... سُبُلِ الهُدى أو كاشفِ الغمّاء
نَزلوا بعرعرةَ السنام منَ العُلى ... وعَلَوْا على الأثباج والإمطاء

رد المظالم:

كانت الخلفاء والملوك تعد يوما خاصا تتفرغ فيه لرد المظالم، ويؤذن فيه لأهل الظلامات كافة برفع ظلاماتهم إليهم مباشرة. وربما تستنيب شخصا يمثلها في ذلك، إذا صدها عن الحضور في ذلك اليوم عارض، وقد شبه ذلك بعض الكتاب في مجالس التميز والاستئناف ولا يفي هذا التشبيه ببيان الحقيقة فان الذي يعرض في ذلك اليوم كل ظلامة في خصومة أو في غيرها نظر فيها القضاة، أو لم ينظروا ولا يكون ذلك إلا في الحكومات الاستبدادية المطلقة. ثم تطور الشأن فكان ذلك وظيفة وتمثيلا دائميا وسميت (ولاية ديوان المظالم) ولا ينالها إلا ذوو الدرجات الرفيعة والمراتب الشامخة، والأنساب العريقة في المجد مع طهارة وجدان، ونزاهة وعفة، وفقه واسع بجميع أحكام الأحوال الشخصية الشرعية. وقد تولاها الشريف سنة٣٨٨هـ هي والنقابة وأمارة الحج، على ما روى ابن خلكان. ويظهر من الحديث الذي ذكره أبوالحسين الصابي وابنه غرس النعمة محمد في تاريخهما حول قول الشريف:

(ما مقامي على الهوان وعندي) الأبيات والذي نقله ابن أبي الحديد، إن الذي ولاه ذلك هو القادر بالله.

النظر في أمور الطالبيين في جميع البلاد أو نقابة النقباء

ذكرنا أن بهاء الدولة سنة ٤٠٣هـ ولاه ذلك. وان فخر الملك أقام في داره حفلة عامة لذلك، وتلى فيها مرسوم بهاء الدولة، ودعا الشريف نقيب النقباء. ولكنني لم أظفر بما يوضح لي حدود هذه الوظيفة. ولا ريب أنها نوع من النقابة بشكل أوسع، ولا علم أن إطلاق **(نقيب النقباء)** على الشريف من جهة أن صاحب هذه الوظيفة يلقب بذلك أو أن تلك تسمية عرفية تكريمية.

نيابة الخلافة بمدينة السلام:

في سنة ٣٨٨هـ قلده بهاء الدولة نيابة خلافته بمدينة السلام، وخلع عليه خلعا فاخرة.

ألقابه

الألقاب: الرضي ذو الحسبين. الشريف الجليل. الشريف الأجل. ذو المنقبتين.

الإنسان بطبيعته ميال إلى الزهو ، تواق بفطرته إلى التفوق، شغف بكل ما يميزه على غيره، تلك غريزة ملاصقة للنفس كيفما تكيفت وحيثما وجدت، ولذلك ترى أن منح الألقاب والرتب من العادات القديمة المنتشرة بين جميع الأمم والشعوب أياً كان شكل حكومتها. وطالما تزلف بها رجال الحكم لرعاياهم واستصنعوا بها، واستكان ذوو الألقاب لأولئك الذين منحوهم ما يخول لهم حق التشامخ على من كان عطلا منه. والناس فيها فريقان، فمنهم من يراها زينة فارغة ومجدا باطلا وبهجة كذابة، وآخر يقول عنها إنها شارة شرف وشهادة نبل ودليل مروءة ورفعة. وقد تبادر فكر إلغاء الألقاب إلى رجال الثورة الفرنسية لأنها كثيرا ما كانت موضوع تجارة سافلة من مانحيها، وذريعة للإعجاب والغطرسة من نائليها. إلا انه لا ينكر أن بعض الأعمال الجلى لا يمكن إثابة من يقوم بها بغير الألقاب والرتب، وقد تكون من بواعث النشاط. فلا بد فيها من مراعاة الجدارة وما الألقاب في الحقيقة إلا كمصباح يحمله الإنسان فيبدي عيوبه إن كان ناقصا ويظهر محاسنه إن كان كاملا. وقد لقب النبي(صلى الله عليه وآله) بعض أصحابه (**بذي الشهادتين**).

وللألقاب شأن عظيم عند اليونان والرومان والفرس، ولا يزال هذا الشان عند الشعوب والحكومات على اختلاف أنواعها حتى اليوم. وعلى هذا جرت الحكومات الإسلامية في تقدير عظمائها باسداء الألقاب إليهم. ولقد كان الشريف، ممن يحمل أسمى الألقاب التي يرمز بها إلى مقامه الفخم. فقد لقبه بهاء الدولة في سنة ٣٨٨هـ (**بالشريف الجليل**) في واسط، وسيره إلى بغداد في موكب ملوكي. فلما وصل بمدينة السلام حدثت فتنة وشغب فيها، فرفع إلى بهاء الدولة بعض أعوانه وشايةعنه، فعتب على الشريف. فكتب إليه من بغداد قصيدة ينفي فيها ذلك منها:

ملك الملوك نداء ذي شجن ... لو شئت لم يعتب على الزمن

إن كان لي ذنب فلا نظرت عيني ... ولا سمعت أذن أذني

وقوله:

أنا عبد نعمتك التي نشطت أملي ... وقهض عزمها أملي

وفي هذا البيت تصاغر من الشريف قلما نجده في ديوانه، إلا أن للظروف أحكاما. وفي سنة ٤٠١هـ أمر قوام الدين الملك أن تكون مكاتبة الشريف بعنوان (**الشريف الأجل**) مضافا إلى مخاطبته بالكنية، بعد أن كان يتجاهل بالشريف الجليل، ابتداء من غير استدعاء. وقد شكره الشريف بمستهله بقوله:

ثورتها تتنعل الظلاما ... لا نقو إبقين ولا سلاما

وفي سنة٣٩٢هـ صدر مرسوم من واسط بتلقيبه (**بذي المنقبتين**) وفي سنة٣٩٨هـ لقبه بهاء الدولة (**بالرضي ذي الحسين**) وقد شكره بمستهله بقوله:

يد في قفا العضب ... فما الانتظار بالضرب

عقيدته من شعره

كتب التاريخ ومعاجم التراجم وأسفار الأدب وطبقات الكتاب والأدباء والعلماء، طبقة طبقة من عصرنا هذا إلى عصر الشريف مطبقة ومتفقة، على أنه شيعي إمامي وقد يند شاذ فيبرم رأياً في عقيدة الشريف إن هو إلا كخاطر تاريخي خاص أشبه بالتهمة والنبز، فيدعي أنه كان زيديا أو أشعريا وقد ذكرنا سبب نسبته إلى العقيدة الزيدية فيما مضى من هذه الترجمة.

وللشيعي الإمامي عقيدة ينقطع فيها عن الطوائف الإسلامية كافة وينفصل بها عن سائر فرقها وهي تستقيم في حدين، مبدأ الإمامة ومنتهاها وهما أن أبا الحسن علياً (عليه السلام) هو الخليفة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) بلا فصل بنصه، وإن ابن الحسن (عليه السلام) بشخصه هو القائم المنتظر والإمام الثاني عشر الذي يكون الشريف في طبقته في سلسلة نسبه العلوي وهذه العقيدة يفصح عنها الشريف بجلاء في شعره فيقول من قصيدته يرثي بها الحسين (عليه السلام):

معشر منهم رسول الله ... والكاشف للكرب إذا الكرب عرى
صهره البائل عنه نفسه ... وحسام الله في يوم الوغى
ثم سبطاه الشهيدان فذا ... بحسا السم وهذا بالظبى
وعلي وابنه الباقر ... والصادق وموسى والرضا
وعلي وأبوه وابنه ... والذي ينتظر القوم غدا
نزل الدين عليكم بينكم ... وتخطى الناس طرا وطوى

وقد مر عليك قوله: (أخذنا عليهم بالنبي وفاطم) وقال يتلهف لذكرى الأئمة الأثني عشر، ويعد المواضع والمراقد المشرفة بهم ويشير إلى ما اختص الشيعة بالاعتقاد به وبروايته من كرامات أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب(عليه السلام):

سقى الله المدينة من محل ... لباب الماء والنطف العذاب
وجاد على البقيع وساكنيه ... رخي الذيل ملآن الوطاب
وأعلام الغري وما استباحت ... معالمها من الحسب اللباب
وقبرا بالطفوف يضم شلوا ... قضى ضمأ إلى برد الشراب
وسامرا وبغداد وطوسا ... هطول الودق منخرق العباب

ثم لا يكتفي بما أجمل فيه الإشارة من قوله (وبغداد) حتى يفصح بما هو أصرح فيقول:

ولي قبران بالزوراء أشفى ... بقربهما نزاع واكتئابي
فسيم النار جدي حين يلقى ... به باب النجاة من العذاب
ومن سمحت بخاتمه يمين ... تضن بكل عاليه الكعاب
وساقي الخلق والمهجات حرى ... وفاتحة الصراط إلى الحساب

وقوله:

وأبي الذي حصد الرقاب بسيفه ... في كل يوم تصادم ونطاح
ردت الشمس بحدث ضوؤها ... صبحا على بعد من الإصباح

وأمثال هذا كثير في شعره والغريب إني ما وجدت للشريف شعرا يذكر فيه فدك، ولا يمرها بخياله في المواضع التي يتناسب ذكرها معها، وهي الحادثة الأولى من نوعها التي أذكت نار الحماس في قلوب

الطالبين، والشق الأول في بناء الهيكل الإسلامي، كما أنه لم يمس الشيخين بسوء، ولم يتطاول على كرامتهما ولا فرضهما ممن مالا أو مالئا على البيت الهاشمي، على كثرة ما يسمعنا من مظالم آبائه واهتضام حقوقهم. بل كان يفتخر بالمشاركة في مجد أحدهما، وقد مر ذلك. فهل كان الشريف يرى أن الإمامة أمر والخلافة شأن آخر، وقد يقوم بأعبائهما شخصان فهذا إمام للناس من الله تعالى، وذلك خليفة من الناس لرسول الله (صلى الله عليه وآله) ويجتمعان في زمان واحد وقد يكونان لشخص واحد، فهو الخليفة والإمام الآلهي ؟ وهل هذا رأي في حل المشكلة الإسلامية التي ما زالت ولن تزال يفتتن بها المسلمون وتنشق عليها عصاهم ...؟ وهل كان في استفتاء الشيخين علياً في بعض ما يرد عليهما من معضلات المسائل الدينية ما يؤيد هذه النظرية؟ وهل كان كل واحد من هؤلاء الخلفاء يعتقد في صاحبه ما ذكرناه؟ وهل كان اختلاف المذاهب، حنفي، مالكي، حنبلي، شافعي، جعفري، إلا من جهة اختلاف الرأي والرواية مع الشك والجزم بما يراه ويرويه الفئة الأخرى؟ وهل يمكننا أن نتخذ هذا المبدأ دستورا وأداة نوحد بها شتات المسلمين ونجمع عليها عناصرهم عند أشد ما يحتاجون إلى الوفاق، وأنكى ما يسامون به من الافتراق؟ للجواب على ذلك موضع آخر...

إلا أن الشريف لا يدع للأمويين عظما إلا هشمه ولا ذما إلا ألصقه، وإذا ذكرهم مزج الدمع بالدم، والأسى بالأسف، فهو ألب عليهم من الناصية إلى الأخمص، وهم ثاره من الألف إلى الياء. وليس كذلك العباسيون فهو يتراوح في ذمهم ومدحهم، على نسبة إيفاء الحق

واستيفائه وقضائه واقتضائه بشأنهم والشأن الديني بالدرجة الثانية، من العتب والتحدي والمطاولة. وإنما المسألة مسألة الدم المسفوك والعرض المهتوك، والسلب والاستباحة والمدافعة والمناكفة في الحكم والسلطان، والغيرة للرحم والعصبية للأباء والأقوام.

وفي شعر الشريف، في مدائح بعض الخلفاء العباسيين ما أشرب روحا دينية، ووضع فيه الخليفة موضعا مقدسا واستوفى فيه الحمد والمدح، إلى الحد الذي يعتقده الإمامية في أئمتهم، وما هو من المطبوع بتلك اللهجة التي لا يقابل بها إلا المتبوع الشرعي، والعميد في الخلافة. ولعل الشريف في ذلك كان قد طبق نظرية انفصال الإمامة عن الخلافة المشروعة، والسلطة الدينية عن السلطة الزمنية، أو راعى فيه ما يعتقده الجماهير والعامة،أو هو من قبيل مدائحه التي يصف الشريف فيها نفسه بقوله:

أهذبُ في مدح الرجال خواطري ... فاصدقُ في حسن المعاني وأكذبُ

وما المدحُ إلا في النبيّ وآلِه ... يرامُ وبعضُ القول ما يتجنبُ

فمن ذلك قوله في الطائع:

هيهات طاعتك النجاة وحسبك ... التقوى وشكرك أفضل الأقسام

ومن ذلك قوله:

لله ثمّ لكَ المحلُ الأعظمُ ... وإليكَ ينتسبُ العلاء الأقدمُ

ولكَ التراثُ من النبيّ محمد ... والبيْت والحجْر العظيم وزمزمُ

ومن ذلك قوله:

فلأنت أولى بالإمامة والهدى ... وأنبُ عنْ ولدِ النبي المرسلْ

وقد جمع الشريف من أصول العقيدة الشيعية: التوحيد، العدل، النبوة والأمامة في قوله:

أصبحتُ لا أرجُـــو ولا أبتغي فضلاً ولي فضلٌ هو الفضـــلُ
جـــدّي نـــبيٌ وإمامـــي أبـي ورايتـي التوحيـــدُ والـعَـــدلُ

ويحدثنا الشريف عن اعتقاده في كتاب "**حقائق التأويل**" أنه لم يكن يتطامن للعقيدة تقليدا، ويتخذها اتباعا، وأنه ربما مر عليه الزمن الطويل وهو شاك تتضارب لديه الحجج وتتنافى عنده الأدلة، وقد يجزم فيعدل حتى تستقر في موضعها من نفسه عقيدته التي لا شك عنده فيها ولا تردد قال:

(ولا عيب على جامع مثل هذا الكتاب البعيد الأطراف المحتاج إلى فضلات من مدد الزمان، أن تقرر فيه مذاهب كانت مترجحة،وتطمئن آراء كانت قلقة على حسب تأثير الزمان الأطول في جلاء الشبهة وحل عقود الأمر المشتبهة، واستدراك فوائت الأدلة واستثارة كوامن الرأي والرواية. ومن ذلك ما يمر بقارئ صدور كتابنا هذا من كلامنا الذي يدل على ميلنا إلى القول بالارجاء، ثم ما يمضي به في أوساطه وأثناجه من الكلام الدال على تحقيق القول بالوعيد، قاطعين به وعاقدين عليه. وإنما كان السبب في تباين هذين القولين سالفا وخالفا، وسابقاً ولاحقا تفرع شبه وشكوك ما زال الزمن بمماطلته يرجئ حسيرها ويسهل وعورها، حتى أسرع حابسها وانقاد متقاعسها بلطف الله وتوفيقه ومعونته وتسديده). انتهى.

مزاياه وغرائزه

توفي الشريف وهو ابن سبع وأربعين، توفي وهو على أبواب الكهولة لم توهن متنه الشيخوخة، ولا أطفأ لهبه الهرم، وانطوى عمره وهو في أدوار الشباب. وللشباب نزعات وللشباب ميول ومجازفات. فكانت تلك الروح تترقرق في سائر مظاهره النفسية. والغرائز والملكات لها اتجاهات وانفعالات مختلفة على نسبة اختلاف أدوار الحياة في المضاء والأنفاذ، فأن الأخلاق تهرم بهرم الأبدان، فالحفاظ العجوز والشهامة والأنفة والوفاء والأباء إذا هرمن لا يشبهن أنفسهن، وهن في دور الشبيبة. فلقد كان الشريف شابا في جميع مزاياه وغرائزه. وفيما تقرأه من صور حياته في هذه الترجمة تعرف جميع مزاياه وملكاته، وما نثبته في هذا الفصل أشبه ما يكون بتلخيص لذلك التفصيل.

لقد كان الشريف أبيا أنفا غيورا، ذا عفاف وحفاظ طموحا للمعالي، ففي ديوان أخيه المرتضى من شعره قوله:

لقد كنتُ أبغي رتبة بعد رتبةٍ ... فأتفُ من أني أفوزُ بها وحدي

حفاظا على الأدبى الرؤم وغيرة ... على الحسب الدأني وبقيا على المجد

لم يدنسه مأثم ولم يكن زهده في الدنيا ونكفه عن الترف والترهل من قبيل الرهبنة والتبتل، وإنما كان يعمد لذلك لينطلق من ميعان الحضارة ويطبع نفسه على الجلد ويحملها على القناعة بشظف العيش، حتى تهون عليه موارد المهالك وأعنات الخطوب. وكان يكره الخلاعة والخلعاء والمجانين، ولا تطاوعه نفسه على التزلف، ويسمت سمت الماجدين السراة وخلة الوفاء. وعزة النفس أظهر مزايا الشريف وأقواها في نفسه، أما شواهد عزة نفسه فلا تحصيها هذه الوريقات،

فلقد انطبع على هذه الخلة منذ كان غلاما ويافعا حتى أورده المنون قعر الرجم، فقد كان يترفع عن الصلات له ولخاصته مهما كان المانح، حتى ولو كان أباه ولا يقبلها ولو ملك بها ناصية اليسار، ووقائعه وقضاياه في ذلك معروفة مشهورة. وهو وفي مهما كلفه الأمر من تضحية. يلبي داعي الوفاء للوفاء، فلا يبالي في سبيل ذلك بطشة الجبار ولا سوط المتأمر ولا يتعمده للخطوة ونيل الأماني، فقد توجع لخلع (الطائع) وهو طريد (بهاء الدولة) ومفجوع غضبه في المستهلة بقوله:

إنْ كانَ ذاكَ الطودُ خرَّ فبعدَ ما استعلى طويلا

ثم يرثيه يوم توفي في الإعتقال بعد جدع أنفه وأذنيه بقصيدته التي مطلعها:

ما بغْدَ يومِكَ ما يُسلو به السالي ومثلُ يومِكَ لم يخطرْ على بالي

وليس من أغراض الشريف في توجعه ورثائه أن يستشير نخوة (القادر بالله) ليوفي له حقه، كما وفاه له الطائع.

وإن كانت مدائحه للطائع أغلبها مما ينسجم في مدح (القادر بالله) فان القادر بالله من ذلك المعشر الذي يقول فيهم الشريف في مدحه للطائع:

منْ معشرٍ تركبوا القلا وأبَوا عن الكرم النزولا
كرمُوا فروعا بعْدَنما طابوا وقدْ عَجِموا اصولا

فهي مما لا يتبرم به القادر بالله أضف إلى ذلك أن القادر لم يكن مخاصما للطائع ولا مدافعا له، ولا يعد تسليم الأمر إليه بأمر بهاء الدولة معروفا في حقه. فان الخلافة حقهم وبهاء الدولة مسيطر باغ قد اغتصب منهم سلطان الخلافة، وترك لهم شكلها وأسماءها. وأيضا فليس مراثي الشريف له ولغيره شواهد على الوفاء فان الشاعر في رثائه إذا كان

مندفعا فيه عن شعور نفسي ربما يكون لخيبة أمانيه في فقد من عقد عليه ادراكها وقد يكون لشعور بعظم النكبة على العموم، وقد يكون لتأثر من خصوصيات المصاب وفظاعته، أو لعاطفة أخرى لا لمحض الوفاء. فلا أرى أن الرثاء من مظاهر الوفاء إلا أنه قد يكون ولكن هذا لا يظن بحق الشريف مع الطائع، فان للشريف عليه لوعة حارة مطردة في جميع شعره من حين وقوع النكبة عليه سنة ٣٨١هـ إلى حين وفاته في الاعتقال سنة٣٩٣هـ،وكما يقول (الدكتور زكي) لا ينظمه رجل متظرف ولا متكلف وإنما ينظمها رجل محزون.

وبعد فلا شك أن شعر الشريف في حق الطائع من الوفاء ومن قبيل التضحية في سبيله لأنه موقف يعرض صاحبه للخطر من المسيطرين الذين فتكوا بالطائع، فما يدريك أن بهاء الدولة أراد أن يشعر القادر بالله عن طريق شعر الشريف دهاء في السياسة أن البأس الذي فتك بالطائع لا يزال وهو لك (بالمرصاد) ولا ينجيك منه إلا الإخلاص.

وكان مدح الشريف للطائع استيفاء للتعمية وصيانة للسر الذي أمن به الشريف من الخطر، وأحسن ما يعرف به وفاء الشريف ما تمناه لنفسه في قصيدته التي يجيب بها الصابي، وقد تقدم بعض أبياتها، فيقول:

ولو أن لي يوما على الدهر أمرة ... وكانت لي العدوى على الحدثان

خلعت على عطفيك برد شبيبتي ... .إلى إخره

وحملت ثقل الشيب عنك مفارقي ... .إلى إخره

ونلت طويلا عنك في كل عارض ... .إلى إخره

على أنه ما انفل من كان دونه ... حميم برامي عن يد ولساني

حفيظ إذا ما ضيع المرء قومه ... وفي إذا ما خون العضدان

علمه وأدبه وشعره

إن من الذين ترجموا الشريف من كان في أعلام الكتاب كابن أبي الحديد، والخطيب البغدادي (الذي يتحفظ في كتابه في ايراد النعوت والمزايا)، والثعالبي في كتابه "يتيمية الدهر". وفيما كتبه هؤلاء عنه كفاية، والمترجمون له غيرهم كثيرون، وهنا نأتي على خلاصة ما أوردوه:

(كان الشريف عالما، أديبا، شاعرا، مفلقا، فصيح النظم ضخم الألفاظ، متصرفا في فنون القريض. إن قصد الرقة في النسيب أتى بالعجب العجاب، وإن أراد الفخامة وجزالة الألفاظ في المدح وغيره أتى بما لا يشق له غبار، وإن قصد المراثي جاء سابقا والشعراء منقطع أنفاسها. إبتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل. وروى عن (ابن محفوظ) شهادة جماعة من أهل العلم والأدب بأنه أشعر قريش. وضم ابن محفوظ رأيه إليهم فقال هذا صحيح، ويشهد لذلك شعره العالي القدح، الممتنع عن القدح الذي يجمع إلى السلاسة متانة وإلى السهولة رصانة، ويشتمل على معان يقرب جناها ويبعد مداها، وكان مع هذا مترسلا ذا كتابة قوية وأدب ظاهر، وفضل باهر وحظ من جميع المحاسن وافر). (انتهى)

ولقد كان للشريف مطامع وأهواء في الملك والسياسة وهو ممن يقال فيهم أنه لا ينام إلا على سر مبيت، أو غرض دفين، وذلك مما يشحذ القريحة ويكدها كأداة يتصل فيها بأحلامه الجميلة والأدباء الذين يتلابسون مع الملوك ويتصلون فيها اتصال استغلال واستثمار في جهات

الحكم والسلطان يتسع خيالهم وتخلق لهم تلك الظروف أدبا ساميا عليه رونق من ابهة التاج وحشمة الملوك. فكان الشريف يتعمد فيما ينشأه من نظم ونثر، أن يحشوه بأوابد الألفاظ وشواردها، ويعجم في الاشتقاق ويسبك ذلك في قوالب البداوة والغرابة.

ويستطرد بهذه المناسبة ذكر رأي في تدوين اللغة العربية طالما تردد في البال ــ لقد فات على أرباب معاجم اللغة الذين قيدوا شواردها وقيدوا أوابدها أخذا من الحفظة والنقلة أو من العرب مباشرة، أن يشيروا في معاجمهم إلى اللهجات واللغات العربية المختلفة فينسبوا كل لفظة إلى القطر أو الشعب التي تستعمل فيه، وينسقوا معاجمهم إلى أبواب وفصول، يختص كل واحد منها بالشعب أو القطر الذي تكون تلك الألفاظ مختصة به ومنسوبة إليه، ثم يجمعوا للألفاظ الفاشية المستعملة عند سائر الشعوب العربية في فصل مستقل.

وإن اشير إلى ذكرشيء من ذلك في كتب التفسير، كقولهم إن ذلك نزل (**على لغة كذا**) وفي كتب اللغة كقولهم في المأثور (**ليس من أمبر أمصيام في أمسفر**) أنه وارد على لغة حمير، وغير ذلك مما نجده مما نجده مبثوثا في زوايا معاجم اللغة إلا إن ذلك في الحقيقة لا يفي بالمرام .قد لا يعترني ريب إن قلت أن الأدباء الذين حفظوا العربية الفصحى من تلك المعاجم، لو يكتب فصل من نثرهم أو قصيدة من شعرهم لتقرأ على أي عربي كان فانه لا يستطيع أن يفقه ما اشتملت عليه من الألفاظ الغريبة ذلك لأن العربية الفصحاء تختلف وتتباين بلهجاتها كما تختلف اللغة الدارجة. فالذين أخذوا العربية من هذه المعاجم كالشريف لا

يستطيعون أن يفهموا عربيا إذا خاطبوه بها، وهذا نقص في فقه لغتنا كان الواجب تداركه ولكنه ضاع، وضاع إلى الأبد. لقد ذاع صيت الشريف في الشعر، واهتم الأدباء في جمعه وشرحه. قيل ولم يكن اشتهاره بالشعر إلا لكونه أجاد به تمام الإجادة، وإلا فهو في العلم على جانب عظيم. وقد أنفذ الصاحب إلى بغداد من ينسخ له ديوانه، وكتب إليه بذلك سنة ٣٨٥هـ فمدحه الشريف بقصيدة منها:

بيني وبينك جرمتان تلاقيا ... نثري الذي بك يقتدي وقصيدي

إن أهد أشعاري إليك فإنه ... كالسرد أعرضه على داود

ويظهر من هذا أن له أسلوبا في النثر والكتابة، هو من طراز ما يحسنه الصاحب منها. وكيف يشك في عد الشريف في زمرة الكتاب وأمراء البيان وهذا تفسيره "**حقائق التأويل**" الذي يصوغ جمله وفصوله بذلك الأسلوب الفخم البليغ، ويظهر فيه مقدرة فنية في النثر، بها يستطيع أن يوافينا ببيان المسائل العلمية بأسلوب إنشائي بليغ، الأمر الذي لا يستطيعه إلا من بلغ الغاية في البلاغة. وقد راقت ابن جني مرثيته لأبي طاهر إبراهيم ابن ناصر الدولة التي مطلعها:

ألقى السلاح ربيعة ابن نزار ... أردى الردى بقريعك المغوار

فشرحها وفسر ألفاظها ومدحه الشريف لذلك. وفي مكتبتنا وريقات بالية أظنها من ذلك الشرح. ولقد شغفت تقية بنت سيف الدولة بشعر الرضي وافتتن به، وكانت من أفاضل نساء قومها. فالتمست انتساخ نسخة من ديوانه على التمام فنسخ لها وأرسل إليها من العراق.

ولم يشتهر الشريف في النثر اشتهاره في الشعر ولعله لعدم إكثاره فيه، ولم يترام إلينا من نثره غير ما نقرأه في أثناء مؤلفاته التي بأيدينا، وقد روى له في "الدرجات الرفيعة" عدة رسائل ليست هي من أسلوب ما قرأناه من المؤلفات في البلاغة.

والشريف إذا نعى ورثى أبدع وأغرب، فإذا عضت النكبة حسبه أو نسبه كان كمستودع غاز مسته النار، فلهذا كانت مراثيه في الحسين(عليه السلام) جده وأمامه، وشهيد أعداء أسرته، ومن لا يخشى عادية الخلفاء العباسيين ولا ملوك عصره أن يقول فيه ما شاء لسانه وخياله، غاية في الإجادة ونهاية في استدراج العاطفة، ومراثيه فيه(عليه السلام) كثيرة ولا يسالم الشريف أحدا من آل حرب إلا ابن عبد العزيز، كوفاء له على صنيعه، وشكر على تكرمه ولا يبالي أن يخرج مدحه بذم سلفه وولاته بعداء آبائه، ولا يستوفي الشكر له بالبكاء عليه لأنه من بني أمية فيقول:

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين	فتى من أمية لبكيتك
غير أني أقول لك قد طبت	وان لم يطب ولم يزك بيتك
أنت نزهتنا عن السب والشتم	فلو أمكن الجزاء جزيتك
دير سمعان لا غدتك الغوادي	خير ميت من آل مروان ميتك
وعجيب أني قليت بني مروان	طرا وأني ما قليتك

وقد روي عن الصادق(عليه السلام) أنه قال :(كان العبد الصالح أبو حفص يهدي إلينا الدراهم والدنانير في رقاق من العسل خوفا من أهل بيته).

العلم في القرون الإسلامية الأول

إن القرون الإسلامية الثلاثة الأول يعني بالعلم فيها دراسة القرآن والنظر في معانيه، وشرح ألفاظه وتفاسيره وضبط قرآءاته وقصصه، ومعرفة ناسخه ومنسوخه، واستفادة الآراء والعقائد والأحكام الفقهية منه، والاحتجاج بآياته، إلى غير ذلك من العلوم القرآنية مما يخص الأدب والفلسفة والأحكام. ولقد كان هو محور العلوم الإسلامية ومنارها. وإذا استعرضنا مؤلفات تلك القرون واستقرأناها، وجدنا تلك المؤلفات لأقطاب العلم المشاهير وما فيها من علوم تحول حول هذه النقطة وهي القرآن وتنشق من معدنها، فالقرآن وما ينشق منه من المعارف هو الكل في الكل. وقد يكون أول علم إسلامي أخذ من القرآن وانشق منه هو الفقه، ثم العقائد والبلاغة وعلوم والأدب والتاريخ. واختلف المفسرون في وضع تفاسيرهم لاختلاف وجهات نظرهم ومقدرتهم، في الأدب والفلسفة والأحكام، وتفاوت قرائحهم في هذه الفنون، أما الشعر والكتابة فهي لا تنسجم في تلك العلوم من حيث أن مصدرها لم يكن القرآن. والشريف عالم من ذلك القبيل أي من نوع يسمى عالما في تلك القرون، فقد استظهر علوم القرآن وبرع فيها، وأحاط بدقائقها واستنتج العقائد الدينية منها، ودرس الفقه الإسلامي كعلم من علوم القرآن ولم يتخصص فيه. ووضع تفسيره "**حقائق التأويل**" المؤلف الواسع الذي بلغ الغاية في الإجادة، والذي كان ضياع القسم الأغلب منه خسارة على الثقافة العربية عظمى، ويكفينا من معرفة مقدرة الشريف العلمية الواسعة ذلك الجزء الذي

ظفرنا به من أجزاء تفسيره، فمنه نعرف أن الشريف أمام في اللغة واسع الإطلاع. وجدلي كلامي بارع، وفقيه ماهر وبصير في التأريخ ومشارك في الفلسفة وأستاذ في الأدب قدير. وسنعد لك مؤلفاته، وهي تبصرنا بدرجاته العلمية. أما فقاهة الشريف فالحديث الآتي يوضح لنا بجلاء ماهيتها.

الفقه الإسلامي

لقد كان الفقه الإسلامي في تلك الحقبة من الزمن التي كان الشريف يتلقى علومه فيها، قد وضع عند فقهاء الجمهور على منهج علمي على حد سائر العلوم. وله مؤلفات مقررة تدرس وأساتذة اختصاصيون. ولم يكن الفقه الجعفري الأمامي مثله، إنما أحكامه التي ينفرد بها ومسائله التي ينفصل فيها تحفظها فقهاؤه، وحملة الحديث عن أئمته(عليهم السلام) كفتاوى خاصة تختلف عن فتاوى الجمهور، ويتكتم فيها علماؤه. وكان على روايات أولئك المحدثين ومجامعهم التي تسمى بالأصول، والتي جمعت وألف منها كتب ومنها استخرجت كتب الفروع يدور مدار ذلك الفقه. ثم من بعد ذلك وضع على منهج علمي ودرس كما يدرس فقه الجمهور، ورتبت أبوابه وتقسمت أقسامه ودونت قواعده المختصة به وغيرها.

والشريف درس الفقه الإسلامي على المنهج الذي وضعه علماء الجمهور وأساليبه المتبعة، ومؤلفاته المقررة. درس ذلك وبرع فيه كفانون للدولة الإسلامية لابد من معرفته لمن يندمج في تشكيلات الدولة. وعرف الفقه الجعفري لأحكامه الشخصية وصلاته الألوهية.

ولهذا نجد عند ذكر الكتب التي قرأها والأساتذة الذين قرأ عليهم كلها من كتب فقه الجمهور وعلى علمائه. وإذا تدبر القارئ ما ذكرنا، فلا يستغرب إذا لم يقف في تراجم الشريف، ولا في مؤلفاته التي يذكر فيها الكتب التي قرأها ومشايخه الذين تعلم عليهم ما هو ومن هو من كتب فقه الأمامي ومن فقهائه. فأنا كثيرا ما نقرأ في مؤلفاته قوله، وقد اختلف الفقهاء في ذلك. ولكنه لا يعقب ذلك إلا بمقالة أبي حنيفة والشافعي وغيرهما من فقهاء الجمهور. ولا يذكر فتوى فقهاء أهل البيت(عليهم السلام) نعم قد يقول ويروي عن أهل البيت كذا. ولو أردنا أن نورد ذلك لطال بنا المقام، ولكن المتتبع لا يفوته ذلك. وقد نقل الشيخ المرتضى في رسالة القطع محاورة فقهية بين الرضي وأخيه المرتضى، وقف فيها موقف المستجوب المعترض، وقد أخذها المرتضى عن الشهيدين في الذكرى والروضة، قالا: **(إنه سأل الرضي أخاه المرتضى، فقال: (إن الإجماع واقع على أن من صلى صلات لا يعلم أحكامها فهي غير مجزية، والجهل بأعداد الركعات جهل بأحكامها فلا تكون مجزية. فأجاب المرتضى بجواز تغيير الحكم الشرعي بسبب الجهل، وان كان الجاهل غير معذور)**. انتهى فهذه المحاورة تدلنا على فقاهة الشريف ومعرفته بطرق الاستدلال والاجتهاد. وقال ابن خلكان إنه عرف من الفقه والفرائض طرفاً قوياً.

مؤلفات الشريف

لقد كان عمر الشريف خصبا بإنتاجه العلمي والأدبي، ويؤدينا الحساب الدقيق لسني عمره بعد شطب المدد التي أنفقها في مزاولة وظائفه، وفي إلقاء دروسه ومحاضراته في مدرسته (دار العلم) وفي محاولاته السياسية، ومجاملاته للخلفاء والملوك، وفي قرضه للشعر وشطب سني الطفولة والمراهقة إلى حد الاستكمال في طاقة التأليف، من قائمة سني عمره يؤدينا ذلك أن إنتاجه لتلك المؤلفات الناضجة التي تحتاج إلى مادة علمية غزيرة، واطلاع واسع كان على حد الإعجاز، ولا بد له من فرط ذكاء وجودة في القريحة وملكة للحفظ والاختزان. وكل مؤلفات الشريف تتشابه في قوة المنطق وأساليب البيان وهي:

١ـ **"نهج البلاغة"**:

وهو ما جمع فيه الشريف من خطب وحكم ورسائل أمير المؤمنين أبي الحسن علي ابن أبي طالب عليه السلام، ذكره الشريف في تفسيره حقائق التأويل، وفي **"المجازات النبوية"** مكررا، وفي صفحة(١٦٧) من حقائق التأويل ما يدل على أنه قام بجمعه قبل هذا الكتاب. ونحيل القارئ الكريم إلى ما كتبه عنه شيخنا حجة الإسلام الهادي آل كاشف الغطاء دام ظله في مؤلفه "مستدرك نهج البلاغة" فقد وفى المقام حقه.

٢ـ **"خصائص الأئمة"**:

ذكره الشريف في صدر نهج البلاغة وقال عنه: إنه وقع موقع الإعجاب من جماعة من الأصدقاء. وذكره كشف الظنون أثناء كلامه

عن "**نهج البلاغة**". ونقل منه ابن طاووس الحسني الداودي في كتابه المسمى بـ"**الطرف**" وهو من مصادر "**بحار الأنوار**" للمجلسي. ولم يذكره ابن خلكان. وفي مكتبتنا نسخة خطية حديثة الخط كتب عليها كتاب "**الخصائص**" للشريف الرضي وذكر مؤلفها في الديباجة أنها تشتمل على خصائص أخبار الأئمة الأثني عشر(عليهم السلام) إلا إنني أشك في صدق النسبة، فان من مارس مؤلفات الشريف يجزم بأنها ليست من ذلك الأسلوب الذي يحبره قلم الشريف.

٣ـ كتاب "**مجاز القرآن**":

وقد سماه الشريف "**تلخيص البيان**" قال عنه ابن خلكان: وصنف كتابا في مجاز القرآن نادرا في بابه. وذكر صاحب "**كشف الظنون**" تحت عنوان (المجاز) للسيد الرضي ولم يزد على ذلك وذكره مؤلفه صفحة(٢، ٣، ٩، ١٤٥)في كتابه "**المجازات النبوية**" وفي حاشية له على "**حقائق التأويل**" وقال عنه وعن "**المجازات النبوية**" صفحة(٣) منه أنهما عرانان لم اسبق إلى قرع بابهما.

٤ـ "**مجازات الآثار النبوية**":

من مشاهير مؤلفاته وأمتعها طبع في بغداد سنة١٣٢٨هـ وقد وقفت منه على نسخة في مكتبة آل الصدر، والنسخة المطبوعة كثيرة الأغلاط وحبذا لو يجدد طبعها.

٥ـ كتاب "**الزيادات**" في شعر أبي تمام.

٦ـ كتاب "**أخبار قضاة بغداد**".

٧ـ كتاب "**تعليق خلاف الفقهاء**".

٨ـ كتاب ما دار بينه وبين أبي إسحاق من الرسائل والشعر.

٩ـ كتاب تعليقه على "**الإيضاح**" لأبي علي.

١٠ـ كتاب "**مختار شعر أبي إسحاق الصابي**".

١١ـ كتاب منتخب شعر ابن الحجاج سماه "**الحسن من شعر الحسين**".

١٢ـ كتاب رسائله ثلاث مجلدات.

ذكر في الدرجات الرفيعة بعضها. ونشرت مجلة العرفان بعضها عن الدرجات الرفيعة.

١٣ـ كتاب سيرة والده الطاهر.

ألفه في حياة والده وقبل وفاته بإحدى وعشرين سنة ويقول الشريف في قصيدة مدح بها أباه وذكر هذه السيرة:

في سيرةٍ غرّاءَ تستضوي بها الدُ ... نيا ويلبسها الزمان الأطول

ملئت بفضلكِ فالولي مكثرٌ ... مَا شاعَ عنها والعدوُ مقلِلُ

١٤ـ كتاب "**حقائق التأويل**".

لابد لنا قبل كل شيء من الاعتراف باليد البيضاء التي أسداها العالم المتبحر، والورع المتبتل الشيخ حسين النوري المحدث الشهير صاحب المؤلفات الرائعة التي طبع أكثرها في المطابع الايرانية، العلم في هذا الباب. لقد كان نور الله ضريحه، يجمع إلى فضله الرواية والدراية والعلم الجم، معرفة واسعة بالمؤلفات وأربابها، وكان من صرعى الكتب، فعلى علو شأنه وتقدم سنه كان يضحي في سبيل جمع الكتب النفس والنفيس، ويصبر لمشاق الأسفار البعيدة لذلك. وتروى عنه في هذا الشأن روايات غريبة. وقد ملك مكتبة مهمة تشتمل على أمهات الأسفار النادرة القيمة، وهو الذي حمل نسخة هذا الكتاب إلى النجف الأشرف في إحدى رحلاته إلى إيران وأشاعها في الأوساط العلمية

وأبرزها للملأ. وقد نسخ نسخته على النسخة التي في المكتبة الرضوية، وبعد أن اشتهرت النسخة وتهافت على الاستنساخ منها عشاق العلم، علم أن في مكتبة آل القزويني إحدى مكتبات النجف نسخة منه، ولكنها لا تضاهي تلك النسخة في الصحة. وعلى النسخة التي أتى بها العلامة النوري نسخت النسخة التي في مكتبتنا، وعليها طبعها منتدى النشر. وقد بذلنا جهودا في تصحيحها،فان نسخة الشيخ النوري التي هي بخطه نسخها باستعجال وبالخط الفارسي، أما نسخة المكتبة الرضوية، فقد ذكر عنها مؤلف فهرست المكتبة الرضوية وهو الفهرست الذي ألف وطبع بارادة ملكية من عاهل إيران البهلوي سنة ١٣٤٥هـ في زمن تولي محمد وليخان الأسدي لسدانة المرقد الرضوي ما تعريبه:

ومن جملة مؤلفات (الرضي) كتاب "**حقائق التأويل**" الذي قيل إنه يتعذر أن يؤلف مثله، ونسخته الشريفة التي حوتها المكتبة المباركة قديمة جدا، وقد نسخت على نسخة عليها خط المؤلف ولكنها غير تامة الأجزاء، والذي يوجد هو الجزء الخامس ليس غير والذي ابتدأ مؤلفه به من أول سورة آل عمران، وقال بعد البسملة (السورة التي يذكر فيها آل عمران وانتهى به إلى أواسط سورة النساء إلى الآية: ﴿إن الله كان عزيزا حكيما﴾. وتاريخ تأليف الكتاب سنة ٤٠٢هـ منقول من خط مؤلفه وتأريخ كتابة النسخة (٢١) شهر رجب سنة ٥٣٣ هـ وصفحاتها تشتمل على (١٥) سطر وعدد أوراقه ٢٠١ وهي وقف، وقفها ابن خانون سنة ١٠٤٧هـ،انتهى.

فقد بقية الأجزاء:

بعد الفحص والتنقيب في المظان التي يذكر فيها الكتاب، يظهر أن أجزاء الكتاب ما عدا الجزء الخامس منها فقدت منذ زمن بعيد، ولم يقف عليها رجال العلم والأدب. قال السيد العلامة الحسن آل صدر الدين في كتابه " **تأسيس الشيعة**": ((منها وهو (مصنفات الرضي) كتابه المترجم "**بحقائق التنزيل ودقائق التأويل**" كشف فيه عن غرائب القرآن وعجائبه، وخفاياه وغوامضه، بما لم يسبقه إليه أحد. وهو مع ذلك في كبر تفسير التبيان رأيت منه الجزء الخامس... إلى أن قال وذكر له السيد المدني في الدرجات الرفيعة كتاب تفسير القرآن غير "**حقائق التأويل**" وفيه نظر)) انتهى.

وقال العلامة النوري في فوائد مستدركه: ((وأما التفسير المسمى بـ"**حقائق التأويل**" فهو أكبر من التبيان وأحسن وأنفع)). وقال أبو الحسن العمري: ((شاهدت مجلدة من تفسير منسوب إليه (الرضي) مليح حسن يكون بالقياس في كبر تفسير أبي جعفر الطبري (وفي نسخة) الطوسي)). وقد اتفق أرباب الفضل الوسع، في التنقيب والفحص عنه في مكتبات الهند وإيران وبلاد العرب فلم يقفوا إلا على الجزء الخامس من هذا التفسير.

نظراء التفسير في كتب العلم والأدب :

أطرى المؤلف نفسه هذا التفسير صفحة(١٧) من المطبوع فليراجع. ونقل الخطيب في تاريخه عن أحمد بن عمر بن روح قال: ((وصنف (الرضي) كتابا في معاني القرآن يتعذر وجود مثله)). ونقل ابن خلكان عن ابن جني قال: ((وصنف كتاب في معاني القرآن الكريم يتعذر

وجود مثله، دل على توسعه في علم النحو واللغة)). وقال صاحب عمدة الطالب: ((وله في التصانيف كتاب "**المتشابه في القرآن**"))، ومراده به هذا الكتاب فان الشريف المؤلف ذكر في صفحة(١٩٦) أنه لا يتعرض غير المتشابه في كتابه. وذكر ابن شهراشوب في معالم العلماء: أن له "**حقائق التأويل في متشابه التنزيل**"، وان له كتاب "**معاني القرآن**" يتعذر وجود مثله. وقال المؤلف في كتاب "**المجازات النبوية**" صفحة(٣٢٦): ((وبحال كتابنا هذا أضيق من أن نسير في أقطار الكلام على هذا الخبر أكثر من هذا المسير، وقد استقصينا ذلك في كتاب "**حقائق التأويل**"))، وقال في صفحة(١٧٥) وقد بسطنا الكلام على ذلك في باب مفرد من جملة كتابنا الكبير في "**متشابه القرآن**" فمن أراد استيعاب معانيه ومعرفة الخلاف فيه فليقصد مطالعته. وقال صفحة(٨) وقد استقصيت ذلك في كتابي الكبير الموسوم "**بحقائق التأويل**".

هل للشريف ثلاثة تفاسير أو تفسير واحد؟

قال النجاشي: وله كتب منها "**حقائق التنزيل**" وعد باقي مؤلفاته. قال في "**روضات الجنات**": وله أيضا تفسيران آخران غير تفسيره الكبير الذي هو على كبر التبيان. ذكرهما النجاشي وغيره أحدهما، "**حقائق التنزيل**" والآخر "**حقائق التأويل**". وقال الشريف في كتاب "**مجازات الحديث**": وقد استقصيت ذلك في كتابي الكبير الموسوم بـ"**حقائق التأويل**". وقال في "**المجازات**" أيضا: ((وقد بسطنا الكلام على ذلك في باب مفرد من جملة كتابنا الكبير "**في متشابه القرآن**")).

أقول: ولا ريب أنه ليس للشريف إلا تفسير واحد هو "**حقائق التنزيل**" والذي بالأيدي منه هو الجزء الخامس فان ما ذكره في المجازات من نعته بالكبير وانه في متشابه القرآن ينطبق عليه.

فانه "**في متشابه القرآن**"، كما ذكر ذلك المؤلف وهو كبير أيضا. فقد أشار المؤلف إلى تباعد أطرافه واتساع أبحاثه نعم يبقى عندنا ما ذكره النجاشي. والظاهر أنه اعتمد اختلاف النسخ في المأمن التي أخذ عنها وهي مختلفة على أنه يمكن أن يكون للشريف تفسيران، أحدهما "**حقائق التنزيل**"، والآخر "**حقائق التأويل**". الذي يختص بخصوص المتشابه. ولكن الذي يبعد ذلك أنه إذا استثنينا النجاشي، فقل من يعد له تفسيران وانما يقتصر على واحد فراجع.

١٥ـ ديوان شعره، طبع مرتين أجودهما الذي طبع في بيروت سنة ١٣٠٧هـ وقد اخذ عن نسخة خطية كانت في مكتبة الشيخ عبد الله نعمة في مجلدين.

قال ابن خلكان: «أن أبا حكيم الخبري أحسن من جمع ديوان الشريف. أما الذي نعتقده في جمع الديوان أن أول من جمعه الشريف نفسه، ولكن على غير تبويب ولا ترتيب. ثم ألحقت به الزيادات التي أنشأت بعد جمعه، وهذه هي القصائد التي نجدها معنونة في الديوان المطبوع بالزيادات. ثم هذا المجموع بوب إلى أبواب الشعر من المدح والرثاء وغير ذلك، ثم رتب على حروف الهجاء على كيفيتين أحدهما ترتيب كل واحد من الأبواب على حروف الهجاء، والأخرى ترتيب جملته على حروف الهجاء. ولا نعلم أن أبا حكيم كيف كان ترتيبه

وتبويبه. وقد أجهدتني معرفة أبي حكيم هذا. وأظنه عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله)).

قال السبكي في طبقاته: ((أبو حكيم الخبري نسبة إلى خبر بفتح الخاء المعجمة، وسكون الباء المنقوطة بواحدة في آخرها الراء المهملة وهي ناحية بشيراز ... إلى أن قال: وكان يعرف العربية ويكتب الخط الحسن ويضبط الصحيح (أي أنه وراق) وشرح الحماسة وعدة دواوين كالبحتري والمتنبي والرضي الموسوي...إلى آخره)).

وما ذكره وان كان لا ينطبق على ما ذكره ابن خلكان ومن تبعه لأن الشرح غير الترتيب ولأن المذكور بالـ(ب) والذي ذكرها ابن خلكان بالـ(ي) لكن الفحص والتتبع ما أوصلنا لغير هذا ولم نجد فيما لدينا من معاجم التراجم غيره وهو أقرب ما يكون لما ذكره ابن خلكان. وترجمه في "بغية الوعاة". وذكر شرحه للحماسة ولديوان البحتري وعدة دواوين ولم يذكر ديوان الشريف.

أساتذته واستاذيته

روى ابن خلكان عن بعض مجاميع ابن جني ان الشريف أحضر إلى السيرافي وهو طفل لم يبلغ عمره عشر سنين، فلقنه النحو وذكر أنه تلقن القرآن، بعد أن دخل السن فحفظه في مدة يسيرة ونقل عن الدرجات الرفيعة أنه قدم هو وأخوه المرتضى وهما طفلان، على ابن نباتة صاحب الخطب. وحديث قراءتهما على أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المفيد(رحمه الله) معروف وخصيراء: أن المفيد رأى في منامه ليلا أن الزهراء(عليها السلام) دخلت وهو في مسجده بالكرخ، ومعها

ولداها الحسن والحسين عليهما السلام، وهما صغيران، وقالت: علمهما الفقه، فانتبه المفيد ولمنامه أثر في نفسه ولما أسفر الصبح من غداة تلك الليلة دخلت عليه بمسجده فاطمة بنت الناصر، وحولها جواريها وبين يديها ابناها (**علي ومحمد**) فقام إليهما وسلم عليهما. فقالت له: أيها الشيخ هذان ولداي قد أحضرتهما إليك لتعلمهما الفقه. فاستعبر وقص عليها الرؤيا وتولى تعليمهما وبرعا فيما تلمذا به.

وقرأ الشريف على أبي الحسن عبد الجبار. ذكر ذلك في كتابه الموسوم بـ"**مجازات الحديث**"، قال: ((ومما علقته من قاضي القضاة أبي الحسن عبد الجبار ابن أحمد، عند بلوغي في القراءة عليه إلى الكلام في الرواية... إلى آخر ما ذكر)). ويظهر من كتابه "**مجازات الحديث**" أن من مشايخه الشيخ أبو الفتح عثمان ابن جني في النحو، وأبو الحسن الربعي وأبو القاسم عيسى بن علي بن عيس وأبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني في الحديث، والقاضي عبد الجبار البغدادي في الأصول، وأبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي في الفقه، وأبو حفص عمر بن إبراهيم بن أحمد المقرى الكناني في القراءة، وقد قرأ "**مختصر أبي الحسن الكرخي**" على القاضي أبي محمد عبد الله بن محمد الأسدي. ذكر ذلك الشريف في تفسير ﴿ولا تقربوا الصلاة...﴾الآية﴾ وقرأ "**مختصر أبي جعفر الطحاوي**" على أبي بكر محمد بن موسى الخوارزمي.

ويقول الشريف في صفحة(٨٥ ــ ٨٦) من تفسيره: ((وقد كنت علقت عن شيخنا أبي بكر محمد بن موسى الخوارزمي عند قراءتي عليه "**مختصر أبي جعفر الطحاوي**" وبلوغي إلى هذه المسألة من كتاب

النكاح، الحجاج على الشافعي في جواز النكاح بشهادة رجل وامرأتين)). ويقول في صفحة(٨٧): ((وقال لي شيخنا أبو الحسن علي بن عيسى النحوي صاحب أبي علي الفارسي، وهذا الشيخ كنت بدأت بقراءة النحو عليه قبل شيخنا أبي الفتح عثمان بن جني، فقرأت عليه "مختصر الجرمي" وقطعة من كتاب "الإيضاح" لأبي علي الفارسي، ومقدمة أملاه عليَ كالمدخل إلى النحو، وقرأت عليه العروض لأبي إسحاق، والقوافي لأبي الحسن الأخفش))، وهو ممن لزم أبا علي السنين الطويلة، واستكثر منه أو علت في النحو طبقته. ويقول: ((بدأت بقراءة مختصر الجرمي، على أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي رحمه الله في سنة ٣٤٤هـ)). ثم انتقلت إلى أبي علي، انتهى.

ويقول في "المجازات النبوية" صفحة(٢٣٣) المطبوع ببغداد: ((وفيما علقته عن قاضي القضاة أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد، فيما قرأته من أوائل كتابه المعروف بشرح الأصول الخمس)) انتهى.

ويقول في صفحة(١١٤): ((وذكر لي قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد، قراءتي عليه ما قرأته من كتابه الموسم بـ "العمدة في أصول الفقه")).

ويقول في صفحة(٩٣): ((وكنت سألت شيخنا أبا بكر بن موسى الخوارزمي (رحمه الله) عند انتهائي في القراءة عليه إلى هذه المسألة، من كتاب الطهارة عن المدخنة، إذ لا خلاف في المجمرة)) انتهى.

ويقول صفحة(١٤): ((وقال لي أبو حفص عمر بن إبراهيم الكناني، صاحب ابن مجاهد وقد قرأت عليه بروايات كثيرة)). وروى ابن

الجوزي أبو الفرج: «أن الشريف قرأ القرآن وهو شاب حديث، على أبي إسحاق إبراهيم أحمد بن محمد الطبري الفقيه المالكي. فقال له يوما أيها الشريف أين مقامك قال في دار أبي بباب الحول. فقال :مثلك لا يقيم بدار أبيه، قد نحلتك داري بالكرخ المعروفة بدار البركة. فامتنع الرضي من قبولها وقال له: لم أقبل من أبي قط شيئا، فقال: إن حقي عليك أعظم من حق أبيك عليك لأني حفظتك كتاب الله فقبلها».

وإذا استطعنا أن نعرف أساتذة الشريف بأشخاصهم وأسمائهم من مؤلفاته، فانه لا سبيل لنا إلى معرفة تلامذته لا من مؤلفاته ولا من غيرها لأن أغلب من ترجم الشريف لم يوف المقام حقه في ذكر من أخذ منه، ومن أخذ عنه ولكننا نعلم أن له تلامذة جمعهم في مدرسته، دار العلم، تلك المؤسسة التي ارصد لها مخزنا اختزن فيه جميع حاجاتهم من ماله وكان يلقي عليهم فيها دروسه تباعا. وانه كان لها خازن خاص يدعى **(أبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري)** المشتهر بمعرفة علم تقويم البلدان، وصاحب المجمع العلمي الخاص به الذي ينعقد في كل يوم جمعة، كمجمع الشريف الأدبي. ويحدثنا الصابي بالحديث المعروف في شأن دخول المرتضى والرضي لمجلس الوزير أبي محمد المهلبي، وما جرى لهما فيه. أن الشريف كان يكفي تلاميذه الذين أسكنهم عمارته، دار العلم، مؤنة كل شيء وانه لما أحضرت هدية الوزير لهم ما احتاج واحد منهم لشيء سوى ما أخذه لغريم اشترى منه دهنا للسراج، لأن الخازن كان غائبا. ولئلا يحجب قراء الشريف عن المخزن فقد دفع لكل منهم مفتاحا حتى لا يضطر إلى ما اضطر إليه صاحبهم، وكلما كان فلم يكن فان الشريف عالم

ويرغب أن يندمج في الأسرة العلمية ولكنه لم يتخذ نهج العلماء في الطابع والمظهر والوضع، ولم يكن إنشاؤه لمدرسة دار العلم ولا لحشره التلامذة فيها إلا إقرار حيثياته العلمية في النفوس، ولكن الغرض منها موقف، والغاية تبرر الغرض والتزعم وهذه الأمور من الوسائل والأسباب ويكفي منها الاسم والرسم.

صلاته بالأدباء

لقد خطب مودته الصاحب، ورثاه الشريف، عندما وافاه نبأ وفاته سنة ٣٨٥ هـ بمستهله بقوله:

أكذا المنون تقنطر الأبطـــالا أكذا الزمان يضعضع الأجبالا !!

وأمره مع الصابي مشهور، وقد مضى ويأتي ما يوضح أسرار صلاته به، وله مودة وتلمذة على أبي الفتح ابن جني، وقد مدحه على تفسيره قصيدته التي رثى بها ناصر الدولة الحمداني، بقصيدة منها:

فدى لأبي الفتـــح الأفاضل أنـه يبر عليهم أن لرم وقـالا
إذا جرت الآداب جاء إمامهـا قريعا وجاء الطالبون أفـالا

ولما توفي أبو الفتح تولى الصلاة عليه ورثاه بقصيدة منها:

لتبكـي أباالفتح العيون بدمعهـا وألسننا من بعدهـا بالمناطـق
شقيقي إذا التاث الشقيق وأعرضت خلائق قومي جانبا عن خلائقي

ولم يتعرض فيها لقراءته عليه وتلمذته له.

ولما صحبه وصادقه مع ابن الحجاج الشاعر، وضع كتابا سماه "الحسن من شعر الحسين" ولما توفي بالنيل وحمل نعشه إلى بغداد سنة ٣٩١هـ رثاه على البديهة بمستهله بقوله:

نعـوه على ضـن قلبـي به فلله ماذا نعـى الناعـيان

وله صلات وداد مع السيرافي، ولما توفي سنة ٣٨٥ هـ بعد وفاة الصاحب رثاه بقوله:

يا يوسف ابن أبي سعيد دعوة أوحـى إليك بها ضمير موجع

لم ينسنا كافي الكفاة مصابـه حتى رمانا فيك خطب مطلـع

ورثى أبي علي الفارسي سنة ٣٧٧ هـ بقوله:

أبا علـي للـدان قـد سـطا وللخصوم إن أطلـوا اللغـطا

وله رثاء لصديقه أبي المنصور المرزباني سنة ٣٨٣ هـ وكان من أماثل الكتاب وبارعي المحدثين.

شعوره في شعره

لا نوافي هـذا الموضوع حقه حتى نأتي على ديوان الشريف كله، ونسل منه شعوره ووجدانه ونحلل شعره. وهذا بحث واسع الأكناف، بعيد الأطراف، يحتاج إلى إفراد في التأليف، وقد خاضه الأدباء ونخلته أقلامهم، ولكنا لا نخلي الترجمة من كلمة وجيزة فيه مما لا يحسن فيما يكتب كترجمة أكثر منه:

يترفع الشريف عن مغازلة الغواني ولا يطيعه خياله في معاطفة الجمال والدلال، أما إذا استصرخ المساعير واستعرض وشيك القنا واستظل مثار النقع واستقل ظهور الجياد، وتخوض المنايا، طاوعته شاعريته واستدرجه الحماس، حتى كأنه في معمعة. فإذا انتهت بعض قصائده أشفقت أن يلوثك الدم، أو تخذم بشبا الصوارم، ولكنه قد

يغضب عليه خياله، وتسرقه وتسترقه معاني البداوة وعقائل الإطناب، وتغير اتجاه العاصفة من نفسه فياوافينا بأمثال قوله:

وإنيَ إذا اصطكتْ رقابُ مطيِّهم ... وثور حادي بالرفاق عجولُ
لخائفُ وضعَ الراحتين على الحشى ... وانظرُ أنيَ مثلموا فأميلُ

ثم ما يفتأ أن يعود إلى نعرته فيقول:

وما راعني نكسُ الأحبةِ عن كرى ... ولكن ليلي بالعراق طويلُ

وقوله:

بتنا ضجيعين في ثوبي هوىً وتقىً ... يلفنا الشوقُ من قرنٍ إلى قدمِ
وأمستِ الريحُ كالغيرى تجاذبُنا ... على الكثيبِ فضولُ الريط واللممُ
وبات بارقُ ذاكَ الثغرِ يوضحُ لي ... مواقعَ اللثم في داجٍ من الظلمِ

مما تجلت فيه عاطفة محتشمة اعتصمت بالعفاف وترفعت بالنبل وقوله:

غزالٌ ماطلَ ديني ... بلجزاع الغديرين
رهوني عندهُ تغلقُ ... بين الهجرِ والسين
ألا لا شللا يا دامي ... القلب بتصلين

ثم يستهويها بما تستلذه نفسه من مواقف الشوس البهاليل فيقول:

ملي بي جولة الخيل وملتقَ العجاجين
وخطارَ القنا والموت مضروبَ الروانين

ومن المستثقل أن تكلف القريحة لغة الفروسية في ملاطفة الحبيب، كما فعل الشريف في قوله:

ربَّ بدرٍ بتُّ التثمهُ ... صباحيا والبدرُ نشوانُ
قدت خيلُ اللثم أعرافها ... حيثُ ذاكِ الخدِ ميدانُ

والشريف حتى في غزله لا يترك الأدعاء فيقول:

ومقبل كفّي وددتُ لو أنّهُ ... أهوى إلى شفتيّ بالتقبيل
جاذبتُهُ فضلَ العتاب وبيتنا ... كبُر الملول ودقّة المملول

ومن دقيق وجدانياته التي جمع فيها بين البساطة البداوة ودقة الحضارة، قوله:

يا ظبيةَ البان ترعى في خمائله ... ليهنك اليومَ أنّ القلبَ مرعاكِ
الماءُ عندكِ مبذولٌ لشاربهِ ... وليسَ يرويكِ إلا مدمعَ الباكي
أنتِ النعيمُ لقلبي والعذابُ لهُ ... فما أمرُكِ في قلبي وأحلاكِ

ومن جمع المختار من شعر الشريف وحلل شاعريته في عصرنا، الشريف أبو طالب العلامة علي بن ياسين العلاق وسمى مؤلفه "**المرتضى من شعر الرضي**".

صلاته بالخلفاء والملوك والوزراء

ولد الشريف سنة ٣٥٩ هـ وتوفي يوم الأحد السادس من المحرم سنة ٤٠٦هـ على ما هو مشهور من ولادته ووفاته. ويقال في الوفاة أنها سنة ٤٠٤ وإن كان الذي يظهر لي من قوله يعرض بنفسه:

إن الثلاثين والسبع التوين به ... عن الصبا فهو مزور ومنعطف

في قصيدته التي مدح بها بهاء الدولة سنة ٤٠٠ هـ خلاف ذلك. وقد ذكر تأريخ القصيدة في نسخة الديوان المطبوعة في بيروت، وفي النسخة الخطية التي في مكتبتنا. ولكنني في شك من صحة ما كتب في تراجم شعره في هذه النسخة فان فيها خطأ وغلطا كثيرا، والخلاف واضح إذا لاحظنا سنة ٤٠٠هـ التي مدح بها بهاء الدولة، والسبع والثلاثين من

عمره، وما ذكر في تاريخ الولادة والوفاة على حساب المعروف من عمره، تكون مدته (٤٧) سنة .أحذف منها عشراً ،اقل مايكون قضاها طفلا حتى ترعرع بين الحواظن والأمهات ثم أستوى لمشاكل الحياة ونتيهت فيه الغرائز،واعتمد الاستقلال وأخذ أسباب الرشد في سنة ٣٦٩هـ وابتدأت حياته العملية وعرف الموالي من القالي ومن يجامل ممن يطاول. ففي هذه المدة من الزمن (٣٧) سنة التي قضاها في عاصمة العباسيين، ولم يبارحها إلا لأسفار قصيرة سيرته لها هذه العاصمة، أو اقتضتها بعض الأحوال. لابد من أن نعرف تقلبات الحكم فيها بنحو الإلمام، ومن اختلف عليه من الخلفاء والملوك والوزراء، ومبلغ ما كان للشريف من الشأن في هذه الظروف،وما له من الصلات والمحاولات.لا ريب أن الموقف في هذه المدة من الزمن دقيق وحرج على أمثال الشريف. فالحكم في مدينة السلام كان من نوع الاحتلال العسكري لملوك آل بويه، وأن للخلفاء العباسيين سيادة ولكنها مستفادة، إلا إنها في الوقت نفسه نافذة ومرعية فيما يحاول الشريف من المراتب والوظائف، كالنقابة وأمثالها مما لا تصطدم مع جوهر الحكم، ولم يضغط عليها التشريع العسكري، ولا تخشاها السلطة الاحتلالية المهيمنة. ولكن مشيئة القوة فوق إرادة الخليفة، وهما على كفي ميزان في النشاط والهوان، كلما نشطت واحدة ضعفت الأخرى، فلا تكون السلامة ولا يكون النجاح مضمونين للشريف ما لم يستدرج لعاطفتين ويجامل السلطتين، وهما وإن اتفقتا في المراسم والمظاهر فالحقيقة على أشد ما يكون من الاختلاف في باطن الأمر، والمنافسة في لسلطان. فماذا يصنع الرضي ومن أي الموردين يروي نفسه الظامئة لطامحة في

سنة ٣٦٣هـ بويع للطائع وفي سنة ٣٨١هـ خلع وخلفه القادر بالله واستمرت خلافته إلى سنة ٤٢٢هـ. وملك معز الدولة ابن بوية مدينة السلام (٣٣٤هـ - ٣٥٦هـ) ثم ابنه بختيار إلى سنة ٣٦٧هـ من جملتها من سنة ٣٦٣هـ إلى سنة ٣٦٧هـ كان الحكم يتراوح بين بختيار وسبكتكين حاجب المعز وأمير الأتراك الذي نصره الجمهور لأنه سني العقيدة وبين عضد الدولة عم بختيار ومن سنة ٣٦٧هـ ملكها عضد الدولة إلى سنة ٣٧٢هـ ثم ابنه صمصام الدولة إلى سنة ٣٧٦هـ ثم أخوه شرف الدولة أبو الفوارس الذي رد إلى والد الشريف أملاكه حتى سنة ٣٧٩هـ ثم أخوه بهاء الدولة إلى سنة ٤٠٣هـ ثم ابنه سلطان الدولة أبو شجاع إلى سنة ٤١٦ هـ. وقد أقام بهاء الدولة بالأهواز سنة واحدة،و استخلف ببغداد أبا علي ابن جعفر المعروف بأستاذ هرمز، ولقبه عميد العراق. وفي سنة ٤٠١هـ توفي أبو علي فاستعمل مكانه بهاء الدولة، أبا غالب ولقبه فخر الملك، وفي سنة ٤٠٦هـ قبض عليه أبو شجاع سلطان الدولة وقتله.

ولقد كان عصر الشريف عصر اضطراب وفوضى، وكان الموقف بين تلك القوى المختلفة المتدافعة حول الجاه والسلطان، حرجا وهو للنفس الطامحة التي تتوق أن تندس بين التاج والسرير، وتسهم لها بنصيب من ذلك السلطان دقيقا...

وفي مثل هذه الظروف تروج سوق الظنون والتهم، ويؤاخذ بمعاريض الكلام ولوازمه وكناياته وعلى الكنايات. وكل يدعي أنه أبو الجميع وسيد المجتمع.

ولقد كان الخلفاء والأمراء والوزراء في هذا العصر تتنافس على استصفاء الكتاب والشعراء، وتحقد على من لا يوافيها بأدبه وشعره، فان ابن عباد كان يحرق الأرم على المتنبي لأنه ضن عليه بمدائحه له، وان الصابي كانت نكبته من عضد الدولة على كلمة ظنها تمس ـ ببعيد ـ معناها بكرامته.

والشريف، من باب أن الغاية تبرر الواسطة، كان ربما يتاجر بشعره في ربح مودة رجال الدولة بعد أن اشتهرت شاعريته، وخطبت مدائحه ويعتذر عن ذلك بقوله:

وما قولي الأشعار إلا ذريعـــة إلى أمـل قـد لان قـود جنيبـة
واني إذا مـا بلـغ الله منيتـي ضمنت له هجر القريض وحربه

دور والدة الشريف

للمرأة في التأريخ السياسي الإسلامي مواقف رهيبة كانت هي فيها عاملا خفيا قويا، تتطامن له العروش وتتم على حكمه الانقلابات الكبرى، ولقد علمت أن فاطمة والدة الشريف، ابنة أخت لزوجة معز الدولة، أميرة البلاط وقهرمانته، وابنة خالة ولده عز الدولة بختيار. وهذه المصاهرة عقدت على حساب وتدبر وتدبير، ومن أسبابها جليل مقام الناصر الأصم صاحب الديلم، وعظيم شأنه في تلك البلاد. وربما كان والد الشريف قد زوجها بالسعاء الذين يسرون بأنباء العاصمة إلى والي الأهواز معز الدولة، ويعرفونه بمصير الأمور فيها وضعف الخلافة ووهنها واستيلاء الأتراك وأميرهم (تورون التركي) على صولجان الحكم ويستثيرون همته لامتلاكها وهكذا كان، فقد دخل معز الدولة

البيت من أبوابه، وقد كان المستكفي صنيعة الأتراك، بواسطة حظيته التركية التي سماها (علم).

وما دامت علم هذه مع الخليفة المستكفي، فلا يهدأ بال معز الدولة وارث الحكم التركي والفاتك برجاله فقد عمد إلى خلع المستكفي وسمل عينيه وقطع لسان (علم) همزة الوصل بينه وبين الأتراك ثم أقامت المطيع مقامه ولو لم تكن الخلافة في ذلك العصر لابد منها إقناعاً للجماهير ولا بد أن تكون للعباسيين، لأنهاها معز الدولة إلى هذا الحد واجتثها من أصلها. ويظهر لنا من فزع المطيع في مشكلاته إلى والد، وتمكينه له من الوظائف العظام إن الصلات والوشائك كانت ما بينهما مبرمة محكمة قبل استخلافه. ولقد كان المطيع يرى أنه هو الوارث الشرعي للخلافة العباسية من أبيه وربما كان أبو أحمد واسطة عند معز الدولة في صرف الخلافة إليه تلك التي تقمصها إلى أن تنازل عنها لوالده الطائع. وفي أيام المطيع توفي معز الدولة، وماذا يكون في شأن الشريف وقد ملك بعده ابنه بختيار، الذي عطفته العواطف وأطلت به شواجر الرحم نحو الشريف أبي أحمد، فظهر أمره وارتفع قدره وبختيار هذا من ملوك اللهو واللعب، الذين لا يبالون بالمجازفات ولا ينظرون العواقب بعين البصيرة، وعقيدة آل بويه في الخلافة معروفة. فكانت هذه الأمور من أسباب السعادة والهناء لهذا الشريف ولا ننسى هنا التجربة المعروفة (**ما في الآباء يرثه الأبناء**) فقد أوجب هذا أن ينشأ الشريف على مودة الطائع والولاء له، وينفرد بذلك الرضي عن أخيه المرتضى الذي ليس له في نفسه اتجاه سياسي ولا رغبة في شؤون الحكم والسلطان، فقد أنس بزهده، وزهد في أنسه، وتورث النسك من أبيه.

وقد حدثنا الخطيب أن ابن عباد كان يقول أشتهي أن أدخل بغداد فأشاهد جرأة محمد بن عمر العلوي وتنسك أبي أحمد الموسوي، وظرف أبي محمد معروف.

ولما استقل الطائع بالخلافة بعد أبيه واستوى على العرش عز الدولة، كان ذلك الدور من أهنأ أدوار حياة أبي الشريف، تهابه الوزراء وتتحاشاه الحجاب والكتاب، فقد عزل بختيار وزيره أبا الفضل العباس ابن الحسين لعداوته له تلك العداوة التي نشأت من بغضه للشيعة وكان أبو أحمد سفيره إلى (الفتكين) أمير الأتراك وللصلح بينه وبين أبي تغلب بن حمدان. وفي هذه الظروف تكونت الصلة المتينة بين هذا الشريف والصابي. وقد حرك له الوتر الحساس وصب في روحه الأماني العالية، واستدرجه إلى الثقة به، لما أنس منه الطموح والافتتان بذلك وقد تحدرت منه هذه النزعة إلى ولده الرضي. فان في رسائل الصابي التي تتعلق بهذا الشريف ملق كثير، ومدائح فيها إغراق وإغراء. والصابي حاذق ماهر بما عنده من التجارب الطويلة في خدمة الخلفاء والملوك وفي أساليب المصانعة والملق.

وقد استسلمت الخلافة لعز الدولة ومرج نفوذها بحكم سلطانه، وفي ذلك يقول الصابي في إحدى رسائله:

ان أمير المؤمنين يعلمكم أن عز الدولة يده التي يبطش بها وعدته التي يعول عليها ،(ومنها) وقد قرن أمير المؤمنين العهد في ذلك عليكم بعهد البيعة الحاصلة في أعناقكم... إلى أن يقول: ((وليس لكم صلاة ولا زكاة ولا عقد ولا مناكحة ولا معاملة إلا مع طاعته سرا وجهرا وقولا وفعلا، فاعلموا أن ذلك من رأي أمير المؤمنين...إلى آخره)).

وقد عرف الطائع من أين تؤكل الكتف فأباح لبختيار إباحة مطلقة، كل عناصر القوة في خلافته ومكنه حذقه من الحيل والإغراء، أن يأخذ بمجامع قلبه. فاستمال بذلك الحاشية ومنهم أبو الشريف إلى ولاته. وانعطفوا على تعظيمه على الحدود والتي تتفق ومشيئة الحكم البختياري من أبهة المظاهر وفخفخة المراسم، والعظمة الجوفاء. وتمشى الشريف على هذه الصلة، فكانت مدائحه له متوالية ينتظر لها المناسبة، ليكيلها بالأصواع. وقد يتناسى الشريف فيها فرديته ونفسيته في احايين كثيرة فيخاطب الخليفة العباسي، بما يخاطب به الإمام المفترض من الله بالنص كالأئمة(عليهم السلام) عند الإمامية. ابتدأ هذه السلسلة من قصائده وعمره(١٥) سنة، فلقد كان مولد الشريف سنة ٣٥٩هـ وأول ما أنشأه من مدائح الطائع على ما يرويه جامع الديوان قصيدته التي يمدحه بها سنة ٣٧٤هـ في أيام (صمصام الدولة) الذي كانت وطأته عليهم أخف من وطأة أبيه وفي هذه القصيدة شكاية من الأعداء ومن الزمان منها:

وهذا الدهر خفض من غرامي ورنق من غبوقي في اصطباحي

ثم سكت الشريف عن مدحه في السنة التي بعدها وربما كان سكوته من جهة أن الطائع لم يعبأ بقصيدة الشريف، لصغر سنه ولم يكن لمدحه الشأن الذي يستغله الخلفاء بالإشادة بعظم شأنهم وإشاعة مدائحهم على لسان الشعراء البارزين الذين كانت مدائحهم أشبه بالإعلانات التي تروج بها السلع إلا أنه يمكن أن تكون قصيدة الشريف هذه قد شاعت لجودتها فمست أريحية الطائع فاجزل له الصلة في سنة ٣٧٦ هـ وتنبهت قريحته فمدحه وهنأه بمهرجانه بقوله:

بالطائع الميمون أنجح مطلبي وعلوت حتى ما يطاول معقلي
رأي الرشيد وهيبة المنصور في حسن الأمين ونصة المتوكل

وفي هذه السنة بالغ الطائع في إكرام والد الشريف واحترامه عند عودته من فارس، فمدحه الشريف بمستهلته:

بالطائع الهادي الإمام أطاعني أملي وسهّل لي الزمان مرامي

ثم جاءت سنة ٣٧٧هـ وفي مهرجانها يقول فيه:

أيادي أمير المؤمنين كثيرة وما لأمير المؤمنين مذال
وأوقاته اللاتي تسوء قصيرة وأيامه اللاتي تسر طوال

وفي عيد الفطر من هذه السنة يهنيه بقوله:

إلى كم الطرف بالبيداء معقود... (الأبيات).

وفي هذه السنة أيضا عاتبه ومدحه بقوله:

أراعي بلوغ الشيب والشيب داليا وأفنى الليالي والليالي فنانيا

ثم لما تصرمت هنأه بالمهرجان من سنة ٣٧٨ هـ بقوله:

جزاء أمير المؤمنين ثنائي على نعم ما تنقضي وعطائي

وكان الشريف يحرص على مودة الطائع ويغار عليه، من أن يتصل به من يناوئه وقد استمال بعض أعدائه الطائع بالمال فغاضه ذلك وقال:

ونمي إلى من العجائب أنه لعبت بعقلك حيلة الخوان
فاحذر عواقب ما جنيت فربما رمت الجناية عرض قلب الجاني

وفي هذه الأبيات نصيحة جافة، لا يسديها إلا ند لنده، مما يدلنا على أن المودة بينهما أدت إلى التسامح في بعض واجبات المجاملة والحشمة. وفي هذا العام تعددت مدائحه للطائع واستؤنفت الصلة ما بينهما،

فاستنزف قريحته في مدائحه وتهانيه. ثم أراد أن يستغل ذلك سنة ٣٧٩هـ فأوجم ونفسه قلقة ولم نقرأ له فيها سوى قصيدته التي يعاتب بها الطائع على تأخير الأذن في لقائه بمجلس خاص، بعد مواعيد كثيرة. وفي هذه القصيدة حماس ومدح واستعطاف، وفيها عتاب و استغناء عما لا يوجب له قدرا وفيها ميل إلى الشآم وما فيها من رعاية وعناية تستمد من حكومة العلويين (منها):

ضربنا إلينا خدودا وسلما ... وقلن لنا اليوم موتوا كراما

ومنها:

إذا ما انجنى إلى ابن المطيع ... حمدنا السرى وأطلنا المقاما

إمام ترى سلك آباته ... بعيد الرسول اماما اماما

يعيد لعلياته هاشما ... إذا ما الأذلاء عدوا هشاما

فهل صافق فابيع العراق ... غير غبين واشري الشناما

سلام إذا لم يكن لقية ... وان يدا إن تردوا السلاما

وفي سنة ٣٨٠هـ كان يتنجز الأذن بالوصول إليه وفيه الوصول إلى الأماني فقال:

متى أنا قائم أعلا مقامي ... ولاق نور وجهك والسلام

وعتب عليه الطائع في تأخير مدحه وأنجز له مواعيده فقال:

الآن أعربت الظنون ... وعلا على الشك اليقين

وفي سنة ٣٨١ هـ مدح الطائع بقصيدة فيها عتاب للوزير علي بن أحمد البرقوهي وهي آخر قصيدة من نوعها، مدحه فيها وهو خليفة ومطلعها:

تأبى الليالي أن تديمـــا بؤسا لخلق أو نعيمـــا

وفي هذه السنة قبض على الطائع في داره، في محفل حافل بالقضاة والسراة، وكان الشريف فيهم ففر هاربا ونجا سالما وفي ذلك يقول:

أعجب لمسكة نفس بعد مارميت من النوائب بالأبكار والسعون
ومن نجاتي يوم الدار حين هوى غيري ولم اخل من عزم ينجيني
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهـون

في هذه السنة قال يذكر أيامه ويأسف على خلعه ويتوجع مما لحقه:

إن كـان ذاك الطـــود خـــر فبعـد مـا استعلى طـويلا

ثم سد هذا الباب وأرخى على هذه الصفحة الحجاب، وجمد خيال الشريف من هذه الناحية إلى أن توفي الطائع في مجلسه وهو مخلوع سنة ٣٩٣هـ فقال يرثيه:

أيها الظاعن لا جـاز الحيا أبدا بعـــدك بالحي الحلال
كنت في الأحجال أرجـــوك ولا أرتجي اليوم عظيما في الحجال

ويفهمنا هذا الشعر، أن الشريف عقد رجاء منذ نشأ بناصية الطائع.

وإذا تأملنا سيرة الطائع، نجده من الرجال المحنكين ذوي البصيرة والرأي، فلم تخدعه الظواهر. فقد عرف أن أمر الخلافة أصبح ضعيفا، لا يعبأ به، وأن السلطة تتردد بين الديلم والأتراك في بغداد، وان قوى الأتراك محدودة في ذلك الوقت. أضف إلى ذلك ميل الديلم إلى الهاشميين على الإجمال، وان عطفهم عليهم أكثر وأعظم من ميلهم إلى الأتراك،أنصار مبدأ الجمهور في بغداد، وبالطبع كان الشريف وأبوه أشد ميلا للديالمة، ولقد كان إسلام الشاعر (مهيار الديلمي) وولاؤه للشريف وأبيه مندفع عن أسس صحيحة، وكان معز الدولة

يعرف أثر الترك في شؤون الدولة، وقد أوصى ابنه بختيار برعايتهم فلم يعمل بنصيحة أبيه ولما التحم الديالمة والأتراك في بغداد وانتصر الفريق الثاني أخرج الطائع وأبوه منها لما عرفوه من ميلهما إلى الديالمة. وعضد الدولة هو الذي رد الطائع إلى بغداد. وقد توفي المطيع في المنفى.

ومن دهائه زواجه بنت بختيار وكانت المنفعة متبادلة بهذه المصاهرة، وقد أصدر ظهيرا بقلم الصابي. نشره في الأقطار بلزوم إطاعة بختيار وأشار فيه إلى تلك المصاهرة ولم تؤثر هذه المصاهرة في عاطفة عضد الدولة نحوه، لما استوى على بغداد فقد قتل بختيار وتتبع رجاله وحاشيته ومن والاه. ولقد تمسك الطائع بمبدئه من الميل إلى الديلم مع ما كان من تغير الأحوال بينه وبين بختيار في آخر الأمر لما ضاقت به المسالك وقل المال في يده وطلب مالا من الطائع لغزو الروم، فأجابه إن صرف المال على من تجيء إليه، وأنا ليس لي إلا الخطبة.

وقد نكب عضد الدولة أبا طاهر بن بقية،وزير بختيار وفتك بالصابي كاتب ديوانه، وأمر وزيره عبد الله أن يعتقل والد الشريف ويسيره إلى سجنه بالقلعة بفارس فعانى ذلك والد الشريف وصودرت أملاكه كل هذا من أجل صلته التي عرفتها ببختيار. ولم أقف على ذكر للعام الذي اعتقل فيه سوى ابن أبي الحديد يقول، أنه حين قدم العراق قبض عليه وحمله إلى القلعة بفارس. وكان دخول عضد الدولة إلى بغداد سنة ٣٦٧هـ وقد بقي معتقلا فيها إلى ان ورد بغداد سنة ٣٦٧هـ. أي بعد وفاة عضد الدولة بأربع سنين ذلك لأنه توفي سنة ٣٧٢هـ عندما دخلها شرف الدولة. إلا أن الطائع احتفظ بتلك الكرامة التي كانت له على عهد بختيار بدهائه وبصيرته، وتزوج بنت عضد

الدولة وفوض الأمر إليه عند دخوله بغداد. فسأله أن يسمع الناس بذلك، فقال ليحضر أبو أحمد الموسوي والد الشريف فلما حضر ومن معه أشهدهم على ذلك. لقد كان عمر الشريف لما اعتقل أبوه ثماني سنوات، وأطلق وهو ابن ست عشر سنة حسب ما نستنتجه من ضبط تواريخ الأحداث الآنفة، أذن فالشريف ممن روعته حكومة عضد الدولة وهو غلام، وممن نشأ على مقتها وكرهها وقد مضى صمصام الدولة بن عضد الدولة على عداوة أبيه مع والد الشريف، وقد كانت المكاره تحتوشه من داخل مملكته وخارجها. وكان سيئ السيرة في هذا الدور (أي من سنة ٣٦٧ هـ إلى سنة ٣٧٦ هـ) الذي تشطر الحكم فيه على بغداد وعضد الدولة وصمصام الدولة كان من أسوأ الأدوار التي مرت على حياة الشريف وأشدها بؤساً. وفيه يتذمر من بغداد ويقول:

مالي لا أرغب في بلدة ترغب في كثرة حسادي

فان أباه في المنفى وأملاكه مصادرة، وأخاه المرتضى قد قبع في بيته وانعزل عن كل شيء، ويظهر مما ذكره جامع الديوان أنه ذهب لزيارة أبيه في فارس. ثم لم يسمح له بالرجوع وبقي معتقلا إلى أن افرج عنهما. قال الجامع وقد مدح (أباه) ويذكر خلاصه وخلاص أخيه من القلعة بشيراز. انتهى.

ولم يعرف ان المرتضى اعتقل مع أبيه، ولا نعرف عقبا لأبي أحمد غير الشريفين. وكانت فاطمة أم الشريفين هي التي تقوم بشأن ولديها، وتتولى الإنفاق عليهما مما ادخرته لنفسها، ومن العقارات والأطيان التي ورثتها من آبائها وترشدهما إلى طرق التعليم، وتتوسل إلى رجال العلم في تعليمها وهما غلامان حدثان منكوبان من السلطان. وقصتهما

مع الشيخ المفيد (رحمه الله) قد مر ذكرها فكم كانت هذه الوالدة مباركة على أبنائها، في أحرج الأدوار التي مرت عليهم. فكلما تقرأه من رثاء الشريف لها قليل في جزاء عاطفتها وحنانها، على ولديها وتثقيفهما وتربيتهما ولم يبالغ الشريف إذا قال فيها:

فمن المعول لي إذا ضاقت يدي ومن المعلل لي من الأنواء

لو كان مثلك كل أم برة غني البنون بها عن الآباء

لقد كان الشريف في أواخر هذا الدور، يقرض الشعر وقد عرف به في بغداد. ولم يسمعنا منه في آل بويه شيئا إلا ما كتبه لأبيه وهو معتقل بالقلعة في شيراز، لما ظهر موت عضد الدولة. وقد مرت عليك أبياته في ذلك. وإذا قرأتها تجد الروعة والرهبة تترقرق بين كلماتها، وليس فيها من أمر عضد الدولة إلا الكتابة والرمز، ثم لما انقضى هذا الدور ابتسم لهم ثغر الدهر كان شرف الدولة واليا من قبل عضد الدولة أبيه على كرمان، ولما بلغه موت أبيه سار إلى فارس فملكها ونفسه طامحة إلى دار السلام، ولا ريب أن أبا أحمد والد الشريف، لما دخل اتصل بشرف الدولة في فارس وأعمل بصيرته ورأيه في استغلال هذه الفرصة، وبلغه ضعف صمصام الدولة، وكانت قوة شرف الدولة الفاتح ماثلة لديه، فاستعمل ـ جهده ـ كل الأسباب التي تقربه من شرف الدولة، وفي الوقت نفسه كان شرف الدولة يحتاج إلى مثل أبي أحمد الذي يعرف من بغداد ظواهرها وخفياتها، والذي يتمتع بشهرة واسعة بين الزعماء والسراة، والأكابر والعشائر التي تقطن الأرياف المحيطة بها. والخبير البصير بأسرار حكومتها وتقاليدها. فمن هنالك انعقدت الصلة ما

بينهما وافرج عن أبي أحمد، وكان كملحق سياسي في الحملة العسكرية التي جهزها شرف الدولة على بغداد، ولما توجه من فارس بصحبة شرف الدولة سنة ٣٧٥ هـ مدحه ولده الرضي بمستهله بقوله:

وقف على العبرات هذا الناظر وكفاه سقما أنه بك ساهر

ولما دخل شرف الدولة مدينة السلام فاتحا، حسر الشريف عن ذراعي خياله، وتفتقت أغشية قريحته، واستبشر لهذا العهد الجديد، فقال يمدح شرف الدولة ويشكر صنائعه عند أبيه، ويصف اعتقاله بالقلعة بشيراز، بقصيدة أنشأها سنة ٣٧٦هـ تمثل الظروف التي أنشئت فيها، فهي مخللة بغبار النقع ومصبوغة بدم الأعداء، وتخفق فيها رايات الفتح، ويقايس بها بين دوري الامتهان والامتنان فتستلذ السعادة في هذا من ذكرى الشقاء في ذلك ومطلعها:

لحظى للملوك من الأيام والدول من لا يبالي غير البيض والأسل

وقد وفى له شرف الدولة ورد على النقيب أبا أحمد جميع أملاكه. وفي هذه السنة مدح أبا نصر سابور بن ازدشير عند قدومه مع شرف الدولة بقصيدة منها:

حتى بلغت من العلياء منزلة تفدى الأعاجم فيها بالأعاريب

ويظهر لي أن أبا نصر هذا قبل أن تتمهد الأمور، كان يضع كل ثقته بالشريف وأبيه، ويسمع من أبي أحمد مدائح ولده هذا وشهامته وشعره فراقه أن يصاهر الرضي بتزويج ابنته منه، وما زال العلويون ولا يزالون يتتبعون سياسة رشيدة في عقد المصاهرات مع الملوك والسراة، وهؤلاء لا يستنكفون من ذلك لشرف الأصل وطيب المحتد،

ولما ورد في السنة من الترغيب إلى ذلك. ولكنه لما فتح مدينة السلام وتملّ بخمرة النصر، وانثالت عليه أمراؤها وساداتها وعظمائها، تخطب وده واستبطن الدخائل، فسخ عقد المصاهرة على ابنته. وكما كان العقد سياسة، كان الفسخ سياسة أخرى. وما أقبح السياسة وألوانها وفي ذلك يقول الشريف:

وإنيّ لا أرجُو من غلائك دولةً ... تذلّلُ لي فيها الرقابُ العوانـدُ

إلى أن يقول:

فمن ذا يرامين وليي منكَ جنّة ... ومن ذا يُدانيني وليي منكَ عاضدُ

وحسام على ما بيننا من قرابةٍ ... فإنّ الذي بيني وبينك شاهِدُ

وفي سنة ٣٧٦هـ بالغ الطائع في إكرام أبي أحمد عند عودته من اعتقاله، واستعاد ذكرى المودة القديمة ما بينهما، وربما يكون قد استعان به على تحسين صلاته مع شرف الدولة. والطائع داهية المجاملة والماهر البارع في تمشي الأحوال مع الملوك من طريق رجال الحاشية والإدارة وأرباب الحظوة عندهم.

وفي هذه السنة أخذت حال الشريف وأبيه تزكو وتتدرج من حسن إلى أحسن ومن هني إلى أهنأ، فالوفاق السياسي بين شرف الدولة أبي الفوارس والطائع مبرم، والشريف وأبوه يشربان من الكأسين ويفوزان بالحسنيين، وقد توفي شرف الدولة سنة ٣٧٩ هـ فرثاه الشريف بطرف دام وقلب كئيب، فقال:

أبا الفوارس ما أعلى يدا عصفت ... من المنون بأعلى عزل والسامي

إلى أن يقول:

أعادَ عزَّ أبي غضبٍ وخَولهُ ما شاءَ من بَذل اعزاز وإكرام

ثم ملك بهاء الدولة، وكان سلطانه وملكه سلطان وراثة لا سلطان غزو وفتح. والملوكية في الحكومات الأرستقراطية الموروثة تختلف بالروح والجوهر عن الملوكية التي تشترى بالسيف والدم، وتأخذ من أربابها بالفتح والغلبة. فان الأولى تكون فيها عناصر الحكم مرعية الجانب، والوضع الراهن محترما والرجال لهم كرامة عند الخلق إلا من شذ وند منهم لأمور شخصية وليس الحال كذلك في الثانية، فان رجالها يشتبه فيهم بالتهم ويرعون بالاحتياط، وتسمع فيهم الوشاية، ويمتهنون بالنكايات والنكبات. وعلى الكتابات تكون النكايات إلا من استطاع أن يبرهن على برائته وولائه ونزاهته.

وإذا تمشينا على هذه النظرية فان الدور المعزى (نسبة إلى معز الدولة) ينتهي بسقوط ولده بختيار، ثم يبتدىء الدور العضدي في بغداد وينتهي باعتقال ولده صمصام الدولة ثم يبتدىء الدور الشرفي ولا يهمنا متى ينتهي. فإذا تأملنا حياة الشريف العملية نجدها تنقسم إلى أربعة أدوار، ينتهي الدور الأول منها بانتهاء الدور العضدي، وهذا الدور قضاه الشريف بالآهات والحسرات، وذكرى مجد الآباء والأعمام والنياحة على من فرط وذم الزمان، وعداوته للنبلاء والأعيان والتحمس لشعور مجهول لم يستعرض فيه الهدف. وهذا الشعور دائما يحدث عند النفوس الملأ بآلامها، وشعره في هذا الدور أغلبه من هذا القبيل.

ثم يبدأ **دوره الثاني** بابتداء الدور الشرفي، وفيه تتبدل الكآبة بالابتسامة، والحسرات بالمسرات ويخلف لنا الدور الأول ذكرى مجد الآباء والافتخار بهم، والاعتزاز بالنفس والزهو والخيلاء، والتماجد بالشيم والسجايا الشخصية وتجد في شعره الكثير من هذا القبيل. ثم ينتهي هذا الدور بخلع الطائع سنة ٣٨١هـ.

ويبتدئ **الدور الثالث**، وكله مطالبات بحقوقه وفيه ملق ومصانعات واستدراج للخليفة والسلطان وذويهما. وادعاء ينبه فيه شعور أولياء الأمور ويستفزهم لرعاية شأنه، وفيه تهديد ووعيد بالالتجاء إلى من يرعى الحق ويسدي الواجب لأهله. فقد جلس القادر بالله سنة ٣٨٢ هـ جلسة أذن فيها للناس عموما ورسم للشريف الحضور في ذلك المجلس على رسمه في السواد، فقال الشريف في ذلك قصيدة جمع فيها للخليفة الإطراء ولنفسه الاعتزاز، وأنهما فرعا دوحه وقسيما سبيكه فقال:

أبغاة هذا المجد إنّ مرامه دحض ... يزل الصاعدين ويزلق

ودعوا مجانبة الخلافة أنها ... أرج بغير ثيابها لا يعبق

وفي هذا البيت مجاملة وتنكب عن المزاحمة إلى أن يقول:

وأنا القريب إليك فيه دونهم ... ليدي عندك طوذ عز أعنق

عطفا أسيّر المؤمنين فإننا ... عَنْ دوحةِ العَلياء لا نتفرقْ

ما بيننا يومَ الفخار تفاوتٌ ... أبدا كِلانا في المفاخر معرقْ

إلا الخلافة ميزتك فإنني ... أنا عاطلٌ منها وأنتَ مطوقْ

ولقد كان بهاء الدولة يميل إلى الأتراك أكثر من ميله إلى الديلم، ويستنصرهم عليهم، وكانت الدولة تقوم بهم في أيامه. كما أن الناقمين على الدولة في بغداد كان شعارهم التظاهر بالولاء للدولة الفاطمية، وأكثر المجرمين السياسيين في بغداد كان مأواهم القاهرة، كما هو مأوى الأحرار على العهد الاستبدادي التركي في العصر الذي أدركناه. ولما سافر الشريف إلى الكوفة وشاع عنه أنه يريد مصر وفيها العلويون آب مسرعا وقال قصيدته التي يتنصل فيها من هذه التهمة، والتي يمدح فيها الأتراك الذي هو مدح لآل بويه في ذلك الحين منها:

أتُرك أملاكا رزانا حلومُهم ... حلولا على الزوراء أيمانُهم عُهْدا

ولا يأنفُ الجبارُ أنْ يعتفيَهُم ... ولا الحُر يأبى أن يكونَ لهُم عبدا

أآل بويهٍ ما ترى الناسَ غيرُكم ... ولا تشتكي أمراً لغيركُم فقدا

خذوا بزمامي قد رجعت إليكم ... رجوع نزيل لا يرى منكم بدا

وللشريف في هذا الباب أبيات مشهورة، ثار بها على القادر بالله، وهدده بالالتجاء لمن لا يراه أهلا للخلافة، ولا يعترف له بأمرها، وينازعه ويشاطره فيها في الممالك الإسلامية. ويحدثنا ابن خلكان، أن القادر بالله عقد مجلسا أحضر فيه أبا أحمد الموسوي وأبنه المرتضى، وجماعة من القضاة والشهود والفقهاء وأبرز إليهم أبيات الرضي أبي الحسن وقال الحاجب للنقيب أبي أحمد قل لولدك محمد أي هوان قد أقام عليه عندنا..؟ وأي ضيم لقي من جهتنا وأي ذل أصابه في ملكنا...؟ وما الذي يعمل معه صاحب مصر لو مضى إليه...؟ أكان يصنع له أكثر من صنيعنا ألم نوله النقابة ألمْ نوله المظالم؟ ألمْ نستخلفه

على الحرمين والحجاز؟ وجعلناه أمير الحجيج!! فهل كان يحصل من صاحب مصر أكثر من هذا...؟ ما نظنه كان يكون له لو حصل عنده. فقال أبو أحمد، أما هذا الشعر فمما لم نسمعه ولا رأيناه بخطه ولا يبعد بأن يكون بعض أعدائه نحله إياه. فقال القادر إن كان كذلك فليكتب الآن محضرا يتضمن القدح في أنساب ولاة مصر، ويكتب محمد بخطه فكتب المحضر وشهد الجميع فيه ومنهم أبو أحمد وابنه المرتضى. وحمل المحضر إلى الرضي أبوه وأخوه فامتنع من تسطير خطه واعتذر بأني أخاف دعاة صاحب مصر، واقسم أنه ليس بشعره وانه لا يعرفه. وألح عليه أبوه فلم يفعل وقال أخشى دعاة مصر وغيلتهم لي، فانهم معروفون بذلك فقال أبوه يا عجبا! أتخاف منْ بينك وبينه ستمائة فرسخ ولا تخاف من بينك وبينه مائة ذراع..؟ وحلف أن لا يكلمه..؟ وفعلا فعل المرتضى ذلك تقية وخوفا من القادر وتسكينا له. ولما انتهى الأمر إلى القادر سكت على سوء أضمره له، وبعد ذلك بأيام صرفه عن النقابة وولاها محمد بن عمر. انتهى. والأبيات هي:

ما مُقامي على الهوان وعندي ... مقولٌ صارمٌ وأنفٌ حمي

إلى أن يقول:

حملُ الضيمَ في بلادِ الأعادي ... وبمصرَ الخليفة العلوي

ومنها:

لفَّ عِرقي بعرقهِ سدا الناس ... جميعا محمدٍ وعلي

ومن هذا البيت الذي يعترف فيه الشريف بصحة نسب العلويين، واتصال نسبه بنسبهم، نعلم السبب الذي منع الشريف من التوقيع على

المحضر. وفي هذا الحديث الذي رواه ابن خلكان وغيره نكات تاريخية، ومواضع يمكن الاستفادة منها في حق الشريف وغيره ، لا تخفى على اللبيب. وقد ظفرت بنص هذا المحضر في كتاب سكردان السلطان لابن حجلة مرويا عن مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزي، ولكنه مذيل بقوله، وكتب فيه الأعيان الرضي والمرتضى. وهذا لا يتفق مع المعروف من عدم توقيعه فيه وفي المحضر سباب وشتائم مقذعة، وطعن في نسب العلويين ونبز لهم بأشنع الهنات والنقائص.

إن الشريف في هذا الدور لم يكن قانعا بما حصل له من الوظائف وما ناله من الرتب، ولم تكن حاله في أوائل عهد القادر على ما يرام. لأن القادر خلف الطائع على الخلافة وهو طريده في البطيحة، وصلات الشريف ومودته للطائع معروفة، ولأن القادر لم يكن مثل الطائع. فقد كانت فيه خشونة وانكماش، وانصراف إلى مسائل الجدل، والكلام في العقائد مع تحزب وتعصب، ورغبة في أن يتخذ لنفسه هذه الخطة من علماء العصر الغابر، ولا يهمه الشعر ولا الشعراء، ولا يرغب أن يتصل بهذه الزمرة، فهو بعيد عن الشريف بالخطة والمنهج. وهذان الأمران هما اللذان يبعدان الشريف عنه، إلا أن الشريف كانت حاجته عنده ومضطر إلى مصانعته.

ولم يخسر الطائع الخلافة في زمن بهاء الدولة لأنه كان عاجزا عن استدراج بهاء الدولة، ولم تخنه عبقريته في مراعاة موقفه في عصره ولكنه الدرهم والدينار المفتون بجمعهما الطائع وخزنهما، وشره بهاء الدولة في الاستيلاء عليهما، فماذا يصنع الطائع فأما دينار ودرهم، أو خلافته. وقد احتفظ بهما فخسرهما. أما صلات الشريف ببهاء

الدولة فهي انه كان يتصل به كشخصية بارزة ذات كرامة ومجد، لا أقل ولا أكثر، ولم يوجد سبب غير هذا يؤكد الصلة ولا عمل آخر يوجب فتورها، ومع ذلك فالشريف هو صاحب الحاجة. ولهذا كان في بداية أمره يوالي عليه مدائحه ويكثر من إطرائه حتى يملك ولاءه، ولا يهم بهاء الدولة كيفما كانت الصلة بين الشريف والقادر بالله.

والشريف في هذا الدور كان يقضي حياته بين اليأس والرجاء. ويرغب في الزيادة فكلما وصل إلى غاية طمع وطمع في التي هي أسمى منها، فإذا يئس ثار والتهب وصب جامات غضبه، وقد قرأت شيئا من ثوراته النفسية ومجازفاته العدائية فوجدته إذا رجا انصاع وتدانى، واستعرض وشائج الرحم وأواصر القرابة مع العباسيين، فقد قال يرثي أبا القاسم الشريف علي بن الحسين نقيب العباسيين سنة ٣٨٤هـ:

لسنا بني الأعمام دينا تمازجتْ ... بلخلا قهم لخلائق والضرائبُ
جمعا نعلنا في ربى المجد هاشم ... وأنجب عِرقيْنا لؤي وغالبُ
إذا عمموا بالمجد لاثت بهامنا ... عمائمُهم أعراقنا والمناسبُ
ترى الشيبَ من أتقافنا في وجوههم ... وأعناقنا كانتْ بهنّ المصائبُ
وكَمْ داخل مَا بيننا بنميمةٍ ... ثقطر بما زاحمته المناجبُ

وفي أيام شرف الدولة، انعقدت المودة بينه وبين الوزير أبي منصور بن صالح وقد استفاد منها لما استمر على وزارته لبهاء الدولة، ولما استقر القادر بالله في دار الخلافة سنة ٣٨١هـ مدحه بمستهله بقوله:

شرف الخلافة يا بني العباس ... اليوم جدده أبو العباس

ويظهر عليه آثار التكلف والشاعرية التي تسخر لها القريحة، وتعتصر منها. وفي هذه السنة مدح بهاء الدولة بمستهله بقوله:

بهاء الملك من هذا البهاء وضوء المجد من هذا الضياء

والشريف في شعره يسميه بهاء الملك.

وفي أثناء هذا الدور أي في سنة ٣٨٧هـ أنفذ أبو الشريف إلى فارس، للإصلاح بين بهاء الدولة وصمصام الدولة، وفي ذلك يقول الشريف:

من العراق إلى أجبال خرامة يا بعده منبذا عنا ومطرحا

وإذا يئس الشريف ثار والتمس الناصر، فتراه تارة يفزع الى علوي مصر وأخرى يستشير نخوة ابن ليلى ويبكيه. ويتألم لخسارته بفقده أو يستميل ربيعه، أي آل حمدان فيقول:

وما سرني أني أقيم على الأذى وإني بدار الهون بعض الخلائف
فجوبي الفلا أو جاوري بي ربيعة وأسرة غيلان الطوال الغطارف

أو يتحمس مفتخرا و يطري البسالة، ويشنأ الجبن والجبناء، ويتذكر وقائع آبائه المساعير، ويصف آماله فيقول:

ولي أملٌ مِنْ دون مبرك نضوه تقلقلُ أثباجَ المَطي البواركُ
سقى لكَ ظمآنُ المشى كلَّ عارضٍ من الدم ملآن الملا طفي حالكُ

لقد مر عليك شيء من شعره في ذلك، وينتهي هذا الدور عند استقرار الحكم ببغداد لعميد العراق أبي علي، نائب بهاء الدولة، وخليفته عند إقامته بالأهواز، أي أواسط أيام نيابته واستخلافه. ويمكن أن ننهيه على سبيل الظن والتخمين سنة ٣٩٥هـ. وقد تصرم هذا الدور والشريف وأبوه يتمتعان بعناية بهاء الدولة ورعايته ومودته لهما، وقد

أثرت مدائح الشريف أثرها وتمكنت الصلة ما بينهما بها. وأما القادر بالله فلم تكن الحال معه على ما يرام، وان زهده وانعزاله واتجاه نفسه اتجاها خاصا، قد أوجب أن يظن الشريف أن وطأته تخف عليه ويأمن منه الشر، ولكنه لم يدعه حتى أنفذ فيه حقده وأبرم في شأنه دخيلة شره، فصرفه عن مراتبه ورتبه.

ثم يبتدىء **الدور الرابع**، والشريف لا يتصل بشؤون الدولة وليست عليه مسؤولية من وظائفها ولكن له مقامه الاجتماعي، وفي هذا الدور هدأ الجأش وانطفى اللهب، ولزم أبو الشريف حلس بيته، وقد كف بصره وقنع الشريف بما استتب له وتحمل المسؤولية على عاتقها، واستنكف عن الخطة الأولى. فهذا الدور كله مصانعات ومجاملات وهو الذي سميته (**بالدور السلمي**) فلا مطاولة فيه ولا محاولة، مع احتفاظ بالحشمة وحذر من المجازفات، والتورطات وفي أواخره كان يستنكف حتى من شعره الذي غالب به، وقارع فيه الملوك والخلفاء، وطفق يحذو منهاج الوقار، ويرتدي أبراد الاستنكاف والاستعلاء، ويتشدد الهيبة ويصاقل الوزراء والحاشية، ولا يعدو خطط المسالمة. ويصطبغ للظروف بألوانها ويتماشى مع مسراتها وأحزانها، ويخشى صولة الجبارين أشد مما لاقى وأنكى. وإذا ذكر أنصاره ورجاله ذكرهم بلهجة الخائف المستجير، فمن ذلك قوله سنة ٣٩٨هـ وقد ذكر أبا العوام:

قل لأبي العـــوام مستدفعـــا ... به جماح القـــد والنـــازل

يا نجوة الخـائف مـن دهـــره ... ويا ثقـاف الخطـــل المـائل

وفي سنة ٤٠٠هـ توفي والده، وله من العمر ٩٧ سنة وعمر الشريف ٤١ سنة فرثاه بقوله:

وسمتك حالية الربيع المرهم ... وسقتك ساقية الغمام المرزم

سبع وتسعون اهتبلن لك العدا ... حتى مضوا وغبرت غير مذمم

وكان يحتاط أن تمس كرامته أو ولاءه عند بهاء الدولة أو يظن فيه الاعتزاز عنه، وقد وشي به عند بهاء الدولة إنه يتكبر عليه في إنشاء مدائحه له بنفسه، كما هي عادة الشعراء في إنشاد شعرهم. والشريف لم ينشد ممدوحا له بنفسه إلا أباه في قصيدته التي مطلعها:

إلى الله إني للعظيم حمول ... كثير بنفسي والعديل قليل

فكتب إليه يعتذر من ذلك:

وما ضر قوالا أطاع جنانه ... إذا خانه عند الملوك لسان

ورب حي في السلام وقلبه ... وقاح اذا لف الجياد طعان

وفي بهاء الدولة يقول:

تمنى رجال نيلها وهي شامس ... فأين من النجم الأكف الشوامس

والشريف ينسى شخصيته مع بهاء الدولة، ويخلع الادعاء ويمثل دور الشاكرين، وتشبه مدائحه له بمدائحه لأبيه، فيقول فيه سنة ٣٩٧هـ:

أنا غرسٌ غرسته وأجلّ الغرس ... ما قدرت ثراه يداكا

لم أجدْ صانعا سواك ولا أعرفُ في الناس منعما ما سواكا

وما أقرأ هذين البيتين إلا ويأخذني العجب، إنهما كيف مرا بين شفتي الشريف، الشفتان اللتان نعهدهما كحاشيتي فوهة البركان..!!

إلا أن ذلك العهد كان مملوءا بالملق والتبصبص للسلطات المطلقة الجبارة، فكان ذلك أثر في تصاغر نفس الشريف، أضف إلى ذلك أن صلة الشريف بالقادر كانت قلقة وفيها كلفة، فلم يبق إلا بهاء الدولة ومن ثم استدراجه فيقول الشريف في ذلك:

كل يوم فضل علي جديد ... وعلاء أناله من علاكا

لا مفر إليك إلا معاليك ... ولا شافع إليك سواكا

وترى في قصيدته التي أنفذها إليه وهو بالبصرة والتي مطلعها:

أعزان روع جيرانه ... لم يذق الغمض ولم يهجع

توسلا وتسولا كثيرا. وفي سنة ٤٠٣هـ عقد أمر الملك لأبي شجاع بأرجان بعد أبيه، فكاتبه بالقصيدة التي فيها:

لا ثل عرش بني بويه انهم ... عذر المكارم والجواب الامرع

أنا غرسكم والغصن لدن والصبا ... غض والعيش القياد الأطوع

ويروي أن آخر قصيدة مدح فيها الملك هي التي مدح بها أبا شجاع سنة ٤٠٤هـ وفيها يقول:

رام مني قود القريض ولولاه ... لقد جانب الزمام الأكفا

هب من رقدة الفتور إليه ... بعد ما غض ناظريه وأغفى

من هذا يستفاد أنه بلغ إلى الحد الذي كان يستنكف فيه القريض، ويرغب ألا يتعاطاه، وأن أبا شجاع كان يطالبه به، ومن هذا القبيل قوله:

ملك ترضى أن يقال شاعر ... بُعداً لها من عند الفضائل

كفك ما أورق من أغصانه وطال من أعلامه الأطول
فكم تكون ناظما وقائلا وأنت غصب القول غير فاعل

واصبح الشريف يغتنم الفرص ليسمع بهاء الدولة شعره في مدائحه التي كان يتبخل بها عليه، فلا يمر العام إلا وله قصيدتان أو ثلاث في الأعياد والمواسم وغيرها منذ تولى صولجان الملك، وكان القادر بالله قد تزوج بنت بهاء الدولة، وتراجع في أيامه وقار الدولة العباسية، ونما رونقها وحسنت صلاتها بالبويهيين الذين هم مستقر القوة وموضعها، فكان الشريف بولائه لبهاء الدولة ينال بغيته من القادر بالله. ويمشي الشريف على هذه الخطة في هذا الدور مع قوام الدولة في مدائحه وتهانيه، ومهما يكن من شيء فلا يُعَدُّ الشريف متنازلا عن مبدئه، فهو لم يزل كما كان، أبي النفس قوي القلب يترفع عن الدنايا ولا يقبل الصلات من الملوك والوزراء ولا الجوائز التي تندى بها أكفهم كما يفعل المتاجرون بشعرهم. ويأبى لنفسه ما يسوغه أدعياء الأدب لأنفسهم، من كسب العيش عن طريقة التزلف إلى الأمراء والسراة وهن دلته التجارب أنه لا يقوى على تلك القوى الجبارة التي كانت تكتنفه إلا بذلك، ومن أجل هذا استنزل مبادئه إلى أعماق نفسه، وسترها بالمصانعات ولاذ تحت أغشية الاتقاء، وقد تضعف إرادته عن صيانتها فيتطاير شررها بين آونة وأخرى، فان نفس الشريف حرمت عليه طيبات الحياة إيثارا للأنفة والكرامة، وصونا للعرض من الدنس وإبعادا للمروءة عن مواطن الابتذال. وفي شعره ثورات واندفاعات

نفسية مخيفة، تدلنا على أنه رجل جلاد ونضال دافع فيه عن المجد العلوي، ونقم على المعتدين عليه.

وينفرد شعره برقة الحنين على ما ذهب من فراطة عزه، وانه ليحشر في زمرة المجاهدين في الحياة، وبالرغم عما يحيط وظيفة النقابة من قيود الرزانة وأغلال الوقار، وكان الشريف حر الإحساس حر الوجدان حر الشعور، يفاصح بالحقيقة ويصارح بما تكظمه الضمائر كيفما أدت إليه الحال، وان أشد ما شنيء به وأوخذ عليه ذهابه بنفسه إلى أبعد غايات الترفع والأنفة، وهو الذي جلب عليه ألوان البغضاء والشنآن ولقد قضى حياته في حكم آل بويه، وهم فيهم غرور، وفيهم حقد ديلمي، وإن لم يكونوا في أصلهم ديالمة، كما يخبرنا بذلك الطقطقي. وفيهم خيلاء وزهو، وفيهم حذلقة ومداهنة سياسية، وفتحوا أبوابهم على مصاريعها للشعراء والأدباء، واقتضوهم مدائحهم لكي ينسى الناس أصلهم الوضيع، وأترعوا لهم الآمال ونفحوهم بالجوائز، وجاهروا بالسوء لمن يتهاون في مدحهم والإطراء عليهم، فلهم بذلك يد على الأدب العربي، فقد صقلوا قرائح الأدباء بأياديهم الغراء ولقد كان الشريف من شاعريته في مشكلة دقيقة المخرج، ويقف بين نفسه الأبية المراس التي لا تطاوعه على الملق والتبصبص، وبين أخرى جبارة غاشمة لا تقبل عذرا ولا تخشى في مشيئتها شرا.

مدح المرتضى لأخيه الرضي

للسيد الشريف أبي القاسم المرتضى علم الهدى أعلا الله مقامه مؤلف[١] جمع فيه المختار من الشعر في الشيب قال في مقدمته: «واعلم أن الإغراق في وصف الشيب والإكثار من معانيه واستيفاء القول فيه لا يكاد يوجد في الشعر القديم وربما ورد فيه الفقرة بعد الفقرة فكانت مما لا نظير له وإنما أطنب في أوصافه واستخراج دفائنه والولوج في شعابه الشعراء المحدثون وللفحلين المبرزين الطائيين أبي تمام وأبي عبادة البحتري في هذا المعنى ما يغير من الوجوه سبقا... إلى أن يقول: ووجدت في شعر أخي رضى الله عنه وأرضاه وكرم مثواه في الشيب شيئا كثيرا في غاية الجودة والبراعة ورأيت أيضا بعد ذكر ما للطائيين أن أذكره كله لكثرة الإحسان فيه والغوص إلى لطيف المعاني وقد أخرجت من ديوانه مائتين ونيفا وسبعين بيتا من يتأملها وجد الحسن فيها غزيرا والتجويد كثيرا وأنا أضم إلى ذلك وأختمه به ما أخرجه من ديوان شعري.. ثم يقول: ويشهد بتقدم في وصف الشيب أو تأخر ضم قوله إلى نظيره ومعنى إلى عديله واطراح التقليد والعصبية وبانضمام ما أخرجته من هذه الدواوين الأربعة يجتمع لك محاسن القول في الشيب والتصرف في فنون أوصافه وضروب معانيه حتى لا يشذ عنها في هذه الباب شيء يعبأ به هذا حكم المعاني فأما بلاغة العبارة عنها وجلاؤها في المعاريض الواصلة إلى القلوب بلا حجاب والانتقال في المعنى الواحد من عبارة إلى غيرها مما يزيد عليها براعة وبلاغة أو يساويها أو

---

(١١) المطبوع في مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢ والمسمى "الشهاب في الشيب والشباب".

يقاربها حتى يصير المعنى باختلاف العبارة عنه وتغير الهيئات عليه وان كان واحدا كأنه مختلف في نفسه فهو وقف على هذه الدواوين.. ثم يقول: وان شئت أن تختصر لنفسك وتقتصر على أحد هذه الدواوين استغناه به في هذا المعنى عما سواه ولاحتوائه على ما في غيره فأنت عند سبرك لها وأنسك بكل واحد منها وعلمك بالاشتراك بينها والانفراد والاجتماع والافتراق تعرف على أيها تقتصر وبأيها تستغنى عما سواه)) انتهى.

إن الذي يستثير إعجابي واستغرابي هنا عناية السيد المرتضى بوضع هذا المؤلف ونشاطه وصرف شطر صالح من أوقاته الثمينة في نقد ما جمعه من الشعر في هذا الباب وتحليله واستهداف موضع الفضل بالمقايسة والمقارنة ونبذ المرذول المبتذل منه واختيار الأنفس وهو ذلك الرجل الفقيه المتكلم المتبتل والمتبوع الديني ومصدر الفتاوى الفقيه للجماهير في عصره والشيخ المتقدم في السن عند تأليفه فانه نور الله مرقده ولد سنة ٣٥٥هـ وتوفي سنة ٤٣٦هـ ويقول في هذه المقدمة وأختمه بما أخرجه من ديوان شعري في هذا المعنى فانه ينيف على (الثلاثمائة) بيت إلى وقتنا هذا وهو ذو الحجة من سنة ٤١٩هـ وربما امتد العمر ووقع نشاط مستقبل لنظم الشعر انتهى.

فيكون في العقد السابع من عمره ونحن نعرف ما يرهق المرجع الديني إذا بلغ تلك المرتبة الدينية وأنيطت به المرجعية ووصل إلى هذا الحد من العمر الذي تعفوا فيه معالم الأدب من نفسه فان له بمقامه القدسي الكريم شغل عن كل شاغل وربما يكون من المفروض عليه في نظر العموم التعالي والتكرم عن مزاولة شيء من ذلك والإسفاف

إليه إلا أن الذي يظهر أنه ليس الأمر على هذه الحال في تلك العصور وان للسيد المرتضى أعلا الله مقامه أدبا جما يتفجر منه لا يصده عنه كل من لابسه من شؤون ومقامات ولا يتنافى معه إن لم يكن عنصرا مهما في تكامل براعته الفقهية.

ويظهر لنا من هذه المقدمة أن السيد المرتضى رحمه الله كان معجبا بشعر أخيه الرضي حد الإعجاب وكان يعده في الطبقة العالية من الشعراء ويخرطه في سلك الطائيين الشيخ أبي تمام وأبي عبادة وان ديوان الشريف الرضي كان مجموعا في ذلك الزمان.

قال في الفصل الذي خصصه لشعر الرضي في هذا الكتاب: ((وهذا ما أخرجته لأخي الرضي، رضي الله عنه في الشيب)) ثم أورد أبياتا من قصيدته المستهلة بقوله:

دوامُ الهَوى في زمانِ الشبابِ ... وما الحبُّ إلا زمانُ التصابي

ومنها قوله:

مشيب كما استلّ صدر الحسام ... لمُ يرِ ومَنْ لبثه في القِراب

وعلق على هذا البيت بقوله: قوله (لم ير ومن لبثه في القراب) استعارة مليحة وإنما أشار إلى أن الشيب عجل على سواده في غير حينه وأبانه لأنه لما شبه طلوع الشيب بسلة السيف أراد أن يبين مع هذا التشبيه سرعة وفوده في غير وقته فقال: ((لم ير ومن لبثه في القراب) تحقيقاً للمعنى الذي ذكرنا)). وأورد أبياتا من قصيدته:

تنفسَ في رأسي بياضٌ كأنهُ ... صقالٌ تراءى في النصول الذوالق

وما جزعي إن حالَ لونٌ وإنما ... أرى الشيبَ عضبا قاطعا حبل عاتق

ومعنى قوله: (وما جزعي إن حال لون)، أي ليس في التغيير ما أجزع له لكنني أرى الشيب كالسيف الذي يقطع حبل عاتقي وهذا مع أنه تشبيه للون الشيب بلون السيف يفيد أن حلول الشيب به في قطع آماله وحسم لذاته وتغيير أحواله يجري مجرى قطع السيف لحبل عاتقه وقد أحسن كل الإحسان في هذه الأبيات فما أجود سبكها وأسلم لفظها وأصح معانيها واورد له قوله في جملة أبيات:

وما شبهت من طول السنين وإنما ... غبار حروب الدهر غطى سوادها

ثم قال ويشبه تشبيه الشيب وإضافته ذلك إلى حروب الدهر قول ابن المعتز:

قالت كبرت وشبت قلت لها ... هذا غبار وقائع الدهر

وقول ابن الرومي:

اطار غبار الشيب فوق مفارقي ... تلوى سنى الراكضات أمامها

وقول المرتضى نفسه بعض الشبه:

ويهززن من داعي المزاح مفارقا ... بلا شمط إلا بياض غبار

قال وهذا البيت تضمن تشبيه بياض الغبار بالشمط ولهذا حسن استثنائه من الشمط من حيث أشبه وإن لم يكن من جنسه. وما تقدم لأخي رضى الله عنه ولابن المعتز فيه تشبيه الشيب وبياضه بالغبار والمعنى يتقارب لأن الشيء إذا أشبه غيره فذلك الغير مشبه له. وأقسم قسما بره أني لما نظمت هذا البيت في وصف الإبل ما كنت سمعت قبله من أحد في نظم ولا نثر تشبيه الشيب بالغبار وإنما اتفق على سبيل التوارد لأن تشبيه هذا بذاك أمر مشاهد يجوز أن يقع لمن فكر من غير

اتباع منه لغيره ولهذا أنكر على من تقدم من العلماء، إذا قالوا أخذ فلان من فلان إذا وقفوا على متشابه من معانيه.

وأورد له قوله وهو آخر ما أورد له:

ولقد أكون من الغواني مرة ... بأعز منزلة الحبيب الأقرب

إلى قوله:

فلقد فجعت بكل فرع باذخ ... من عيص مدركه الأعز الأطيب

ثم علق عليه بقوله: ((ولهذه الأبيات ما شئت من معنى ولفظ))، وقال: ((وكنا ذكرنا في صدر الكتاب إنا أخرجنا من ديوان أخي رحمة الله مبلغا عيناه ووقع إلينا بعد ذلك من شعره ما زاد على ما ذكرناه من العدد والمخرج كله يزيد على الثلاثمائة بيت))، انتهى.

ولولا خوف الإطالة وتحاشي الخروج عن الموضوع لأوردت هذا الفصل بطوله وشفعته بما ذكره الدكتور زكي مبارك في الفصل (بكاء الشباب) من كتاب "**عبقرية الشريف**"، وقارنت بين النظرتين نظرة الشريف ونظرة الدكتور فيما عرضنا له من شعر الشريف الرضي في الشيب وانك لتجد من عظيم الصنيعة في مهارة المرتضى وبراعته في نقد الشعر وتحليله وغربلة معانيه ونفاذ قريحته في التعمق في دقيق معاريضه في هذا الكتاب ما لا يحسنه إلا المهرة في فنون الأدب وصيارفة الكلام وما يستقيم دروسا نافعة لمن يعتمد التفوق في هذه الصناعة وقد اقتصرنا من ذلك على إيراد ما يزيدنا معرفة وبصيرة بأدب الشريف الرضي لا غير.

الافتخار بالنسب

وإذا لاحظنا ما للأنساب من الاعتبارات عند العرب عامة وعند الهاشميين على الأخص وما لها من كرامة وقوانين عرفية وضعية تعرف السبب الباعث للشريف الرضي، فيما أكثر فيه من الافتخار بنسبه وما يتصل بذلك من الأيفاء بكل ما يتوصل به لتولي النقابة فيها.

إن للأنساب شأنا مهما عند الأمة العربية قبل الإسلام وبعده ولعلمائها كرامة وقولهم فصل ينفث به حد الشدائد وتحل فيه عقد المكارة في حياتها العائلية والاجتماعية وقولهم مقطع الأمر ومرجعه، به تشد وشائج الأرحام فينطفئ بها لهيب الأضغان وبقولهم تختار كرائم الأزواج لطهارة الأنساب. والنسب بعد ذلك من الدعائم التي ترتكز عليه مقدراتهم الاجتماعية وتتصل به اتصالا وثيقا لقد كان الحكم في الأمة العربية طائفياً قبل الإسلام وبعده ولحد الآن لم يستأصل ذلك النوع من الحكم من مجموعها الاجتماعي في كثير من أقطارها التي تقطنها مهما كان نفوذ الدولة التي تنضوي تحت سيادتها فان زعيم العشيرة وسريها هو صاحب السلطة المطلقة في أفرادها والملك غير المتوج ولكل عشيرة قوانين عرفية تقليدية تتواضع عليها وتتحد بها صلاتها مع غيرها من الطوائف الأخرى وتتمسك بها إلى حد الغلو وتتكون لها بها شخصية اجتماعية ممتازة ولا يتنافى ذلك مع سيادة الدولة التي يشملها سلطانها. وأن لطوائف الأمة العربية درجات في الكرامة الاجتماعية محترمة تتحاسب عليها في المناسبات التي تقع بينها فكان حتما في هذا الوضع الاجتماعي أن يحتفظ بالأنساب ويكون

لعلمائها شأن يذكر في كثير من مقدراتها الحيوية. ثم في تعاقب الحكم الأموي والعباسي تضاعفت الحاجة إلى معرفة الأنساب ودونت لها المؤلفات والكتب وأدخلت في قائمة العلوم التي تدرس وتتفاضل بها العلماء ووضعت لها الكلمات الاصطلاحية والرموز الفنية ولكن الحاجة إليها في الدور الأموي لا تشبهها في الدور العباسي.

حرص الأمويون على احتكار السيادة الإسلامية للعرب دون غيرهم من الشعوب الإسلامية وشدوا العزيمة على صيانة الحكم العربي من الدخلاء والموالي وقاوموا العقيدة الشعوبية بكل ما لهم من طاقة ومنه فكانت للأنساب العربية ولمن يحمل شهادة عالية بها قيمة مرعية في اندماج حاملها في عناصر الحكم وكان من المحتم الشطب على الدخيل والمولى من ملاك الوظائف ولما أعقبه الدور العباسي تطلعت رؤس الموالي وقبضوا على أزمة الحكم وانكمش أشراف العرب يتطاولون بالعظام ويتفاخرون بما كانت وضعفت قيمة النسب العربي بصورة عامة وبضعفها قلت الحاجة إلى النسابين إلا أنه من بين ذلك كان لأنساب الهاشميين بصورة خاصة شأن عال في مقدرات الدولة نظير ما كان للعربي القح في دور الأموي أو أعظم باعتبار أنهم الأسرة المالكة وورّاث العرش الشرعيون وكانت لهم حقوق استثنائية يتمتعون بها لابد من رعايتها وللشيعة من ناحية أخرى دينية محضة اهتمام آخر بأنساب الهاشميين لاعتقادها أن لهم حقا شرعيا ماليا في بيت المال الإسلامي وهو الذي يسميه فقهاؤها بالخمس الهاشمي وان لهم حقوقا ووجائب دينية غير ذلك هي من جملة أحكام الفقه الديني.

عمره ووفاته ومدفنه

عن الخطيب أنه توفي في بكرة يوم الأحد ٦ محرم سنة ٤٠٦هـ وولد سنة ٣٥٩هـ ببغداد من دون خلاف وذكر جماعة أنه توفي سنة ٤٠٤هـ وأورد صاحب "**روضات الجنات**" حديثا عن ابن أحمد العكبري قال سمعت المرتضى يقول ولدت سنة ٣٥٥هـ وولد أخي الرضي سنة ٣٥٩هـ وتوفي الرضي سنة ٤٠٥هـ، ولما توفي الشريف الرضي أدهش المصاب أخاه المرتضى وأوجع قلبه، فلم يتمكن من مشاهدة الكارثة، فذهب ماشيا إلى تربة الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) وجاء فخر الملك الوزير أبو غالب وولداه الأعز والأشرف، حفاة مشاة، فصلوا عليه في داره ودفنوه فيها. ورثاه سليمان بن فهد بقوله:

عذيري من حادث قد طرق ... أمات الهدى وأحيى القلق

ولا يزال في نفسي شيء من عدم حضور المرتضى موت أخيه وعدم الصلاة عليه ودفنه الذي اتفق عليه المؤرخون. وكيف يمكن أن تحصل لنا قناعة بأن المرتضى، ذلك المتقي المحتسب العارف الرباني، يستخفه الجزع في لقضاء الله وقدره فيهرب من حضور هذا المشهد، وهو مع ذلك سري الأسرة وكبيرها والمتوفي مثل شقيقه وهو الرضي. فلا بد أن يكون هنالك سر لم نطلع عليه.

وقد دفن في داره الكائنة في محلة الكرخ بخط مسجد الانباريين. وذكر كثيرون أنه نقل بعد ذلك إلى كربلاء فدفن عند قبر أبيه. وذكر العلامة الطباطبائي أن موضع قبر الشريف عند قبر إبراهيم المجاب جد الشريف ابن الإمام موسى بن جعفر في الحائر الحسيني، وهو في أواخر الرواق فوق الرأس المقدس من الحرم المطهر. قال

في "**روضات الجنات**": ((وقيل أنه الآن في المسجد المتصل بالحائر في الجهة الواقعة خلف الضريح المقدس)). ولصاحب "**روضات الجنات**" هنا تحقيق غريب في التوفيق بين ما اشتهر بين المؤرخين من نقله إلى كربلاء، وبين ما هو المعروف بين الناس في زماننا هذا، من أن قبره في الكاظمية. وإني لآسف جد الأسف أن ينتشر هذا الكتاب في الآفاق من دون أن ينزه أو يهذب ولكنه في المقام قد أحسن فيما أورده من الاختلاف في موضع القبر، ويتلخص ذلك في أنه قبل النقل إلى كربلاء أودع الجثمان في الكاظمية، فشاعت التسمية لهذا المحل (**بقبر الرضي**) ثم نقل الجثمان إلى كربلاء وبقيت العمارة المشيدة عليه تعرف (**بقبر الرضي**). قال: ((وصحت التسمية بملاحظة ما كان أو لتخلف بعض أجزاء الجثمان عند النقل، وإنها لم تسو وبقيت مشيدة لأنه دفن في جوار قبره بعض الأكابر الصالحين الذين تعظم قبورهم)) انتهى.

ففي كلامه هذا بيان لوجه التسمية، وسبب بقاء العمارة مشيدة لكن هذا القبر المعروف واقع بالقرب من مقابر قريش، وأين هو من محلة الكرخ ولعل النقل تكرر، ولعل القبر لواحد من عقبه القريب، وقد شاع باسمه.

وقد رثاه أخوه المرتضى بأبيات منها:

لا تنكروا من فيض دمعي عبرة ... فالدمع غير مساعد ومواسي

وآها لعمرك من قصير طاهر ... ولرب عمر طال بالأرجاس

ورثاه مهيار بمستهله بقوله:

أقريش لا لفم أراك ولا يد ... فتواكلي غاض الندى وخلا الندى

وأخرى مطلعها:

من جب غارب هاشم وسنامها ... ولوى لويا فاستزل مقامها

عقب الشريف

أعقب الشريف ولدا واحدا، هو أبو عدنان الملقب بالطاهر ذي المناقب لقب جده أبي أحمد. وقد تولى نقابة الطالبيين ببغداد على قاعدة جده وأبيه وعمه، وانقرض عقب الرضي بانقراضه. وذكر أنه كان عظيم الشأن معظما عند ملوك آل بويه، وقد مدحه شعراء عصره كابن الحجاج ومهيار وغيرهما، ونقل في عمدة الطالب عن أبي الحسن العمري الشريف علي بن محمد العلوي النسابة، المعروف بابن الصوفي أنه كان عفيفا متميزا بصلاحه وصواب رأيه.

الى هنا جفَّ قلمه الشريف (تثمل)، والحمد لله أولاً وآخراً.

الفهرسة

الموضوع **الصفحة**

ترجمة المؤلف ١
نسبه وولادته ١
أساتذته ١
مجلس درسه وتلامذته ٢
آثاره العلمية ٣
وفاته ٤
عقبه ٤
مصادر ترجمته ٥
الشريف الرضـــي ١١
ولادته ونشأته ودراسته ١١
صفاته وأخلاقه ١٢
آثاره العلمية والأدبية ١٢
شعـــره ١٣
مغرســـه ١٣
رهطـــه وأشياخـــه ١٥
وظائفه في الدولة وألقابه ٢٧
وظائفه ٢٧
النقابة ٢٧
إمـــارة الحـــج ٣٤
رد المظالم ٤٦
نيابة الخلافة بمدينة السلام ٤٧
ألقابه ٤٧
عقيدته من شعـــره ٤٩
مزاياه وغرائزه ٥٤
علمه وأدبه وشعره ٥٧
العلم في القرون الإسلامية الأول ٦١
الفقه الإسلامي ٦٢
مؤلفات الشريف ٦٤

أساتذته واستاذيته ٧١
صلاته بالأدباء ٧٥
شعوره في شعره ٧٦
صلاته بالخلفاء والملوك والوزراء ٧٨
دور والدة الشريف ٨١
مدح المرتضى لأخيه الرضي ١٠٥
الافتخـــار بالنســـب ١١٠
عمره ووفاته ومدفنه ١١٢
عقب الشريف ١١٤